الأمس المفقود

اسم الكتاب: الأمس المفقود
اسم الكاتب: حسين نصيب المالكي
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولى – 2020 م
رقم الإيداع: 20998 / 2020
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 6852 – 12 – 9

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

الأمس المفقود

رواية

حسين نصيب المالكي

للنشر والتوزيع
Arabic Library

الإهداء

إلى المرأة المثابرة الصامدة أهدي قصتي هذه..

ها أنا اليوم ضحية من ضحايا هذا المجتمع، نتيجة أخطاء لم تقترفها يداي، وليس لي فيها ذنب من قريب أو بعيد، فهل سأتخلص مما أنا فيه من الوحشة والغربة؟، بالرغم من أنني أعيش في وطني، بل وفي مدينتي الجميلة والتي هي مسقط رأسي، يا له من أمر محير حقاً.

يقولون أن أي امرأة تكتب الحقيقة عن حياتها، ستكتب عملاً عظيماً، وأنا أريد أن أعود بكم للوراء أربعين عاماً.

عندما قال لي أبي – ذلك الرجل الطيب الوقور – ذات يوم:

– أنت يا ابنتي ولدت بعد حرب أكتوبر سنة 1973م ببضعة أشهر فقط.

هل ولدت في هذا البيت أم في المستشفى؟ أو في مكان آخر،لست أدري كل ذلك لا يهمني، المهم لدي أنني خرجت من مكان مظلم ضيق، مكثت فيه تسعة أشهر، كان كل شيء فيه ضاغطاً علي، ذلك الحوض الضيق، والذي لا أستطيع التحرك فيه كثيراً، ثم قذفت بي أمي بين ليلة وضحاها، في تلك الليلة المظلمة، نحو الفضاء الواسع المشرق، لأرى النور والشمس والحياة في فضاء أوسع وأرحب، حيث أطلقت صرختي الأولى، وفتحت عيني على عالم آخر، لم أرضع الرضاعة الطبيعية من ثدي

أمي، بل أرضعتني بالرضاعة الصناعية، وكانت تجلب لي أمي باستمرار حليب الأطفال..

كنت طفلة صغيرة بوجه مدوّر قمحي، وعينين واسعتين، وأنف روماني دقيق، وشعر قصير.

هكذا وجدت نفسي في مدينة ساحلية هادئة، تطل على البحر، وفتحت عيناي على كوخ صغير من الحجارة مسقوف بالزنك والأخشاب، يطل على ربوة عالية، في حي عتيق، كانت تقطنه أمي وأبي في ستينيات القرن الماضي، أخذت أحبو في وسعاية تلك الحوش الغير مسقوفة، لازالت تفاصيل ذلك الكوخ عالقة بذاكرتي، هل أنا ولدت بداخله؟ أم خارجه في مستشفى المدينة؟ أم في غيرها ؟ لست أدري.

حدثتني أمي قائلة لي:

- إن هذا الكوخ الذي سكنّاه، قام أبوك ببنائه.

كانت حجراته ضيقة، مسقوفة بالزنك والأخشاب، ونوافذه صغيرة واطية، عندما بدأت أحبو داخله، كانت أمي تخشى علي من التسلل خارجه، أو السقوط من عل، لكنني كنت جبانة أخاف حتى من نباح الكلاب، أو حتى الخروج من الكوخ، أصل الباب ثم أرجع مسرعة.

عندما يحل الشتاء، وتهطل الأمطار بغزارة، وتضرب بسياطها سقف الكوخ وجنباته، وأسمع زخات المطر، أهرع مذعورة وأرتمي في أحضان أمي، التي ما تلبث أن تنهض، وتضع الأواني تحت القاطر، الذي بدأ يتسرب من السطح، وكنا ننام على إيقاع تلك القاطر، في احدى زوايا الغرفة المتناثرة ، فيها تلك الأواني الفارغة لتجميع مياه الأمطار، وأتذكر إنه بعد عدة سنوات رحلنا عن تلك الكوخ، وودعنا ليالي الصقيع والأمطار الغزيرة، وانتقلنا إلي حي آخر، ومنزل صحي مبني بالبلوك والخرسانة والإسمنت، واسع به ثلاثة غرف ومربوعة وحمامين، ومطبخ، وصالة، وعليه سور من جهاته الأربع، أرضه منبسطة مسطحة، بناه لنا أبي، بقرض تحصل عليه من المصرف التجاري، الذي كان يعمل فيه، وزرع أبي في مساحة السور أشجار العنب والرمان، وبجوار بيتنا كانت عدة بيوت أخرى حديثة، وتلاشى الخوف من الشتاء وأمطاره الغزيرة، عشت فيه صباي وزهرة عمري، في كنف أب متوسط الطول، نحيل الجسم، أنيق الهندام، مكافح مثابر، ثقافته أوروبية، نتيجة لعمله مع الإدارة الانجليزية في مقتبل شبابه، إبان وجودها في بلادنا، كان يجيد التحدث بالإنجليزية بطلاقة، ثم عمل بعد ذلك في مصرف المدينة حتى تقاعده.

أبي دائما يرتدي البذلة الرسمية، وعلى رأسه الشنة الحمراء، الكل يعرفونه من خلال عمله المصرفي، وهو محبوب من الجميع..

وأم كانت شخصيتها قوية، تجاوزت العقد الخامس من عمرها، وجه صغير بض وعينين ضيقتين نشيطة تصحو من الصباح الباكر، لا تعرف القراءة والكتابة، قصيرة القامة، تزين وجهها البض نفايل خضراء، تحب بيتها، وتستغل كل وقتها في خدمته ونظافته، كنت الوحيدة لوالدي.

عندما كبرت أصبحت أمي ترسلني للمحل المجاور لشراء علبة الحليب، أو زجاجة الزيت، أو الملح أو السكر أو الشاي، وبعد العشاء تسرد لي حكاية نقارش،أو عيشة، أوحكاية أبوزيد الهلالي،حتى يداعب عيناي النعاس، فتجذب علي الغطاء، هذا الأمر جعلني محل حنان ورعاية بالغتين منهما، أب وأم في غاية الحب والحنان، لم يجعلاني أحتاج لشيء أبداً في حياتهما..

وفرت لي أمي الدمى التي كنت ألعب بها ثم أمزقها، والألعاب التي كنت أكسرها، لأعرف ماذا بداخلها؟ ثم أبكي عليها بعد أن تتحطم، كنت ألعب مع أطفال الأقارب والجيران، كنت طفلة مشاكسة، وجدت نفسي بلا أخوة وأخوات، وعندما يقوم الأقارب بزيارتهم لنا، بأطفالهم كنت أشعر بالغبطة والسعادة، وأحضر صندوق ألعابي والدمى، وحين

يغادرون منزلنا أوصلهم حتى الباب، وألوح لهم بيدي في حزن، وأتمنى أن يطول بقاءهم عندنا، وأدخل البيت وسط ألعابي المتناثرة، كنت طفلة ودودة أحب الآخرين، وأغدق عليهم من حناني وعطفي، ومشاكسة كبقية الأطفال..

كانت هذه المدينة هي مسقط رأسي، قضيت فيها طفولتي، وصباي وزهرة عمري، وكم تعثرت في طرقاتها، وأنا أمشي على قدمي، خلف أمي وأنا أتشبث بجردها الرمادي في فجر العمر، حين كانت تهدهد رأسها الشموس المشرقة، في الصباحات الجميلة، بعد أن كبرت، تعرفت على أزقة وشوارع مدينتي الواسعة المطلة على البحر، كأي مدينة ليبية ساحلية، تعرفت على أحيائها العتيقة، وشوارعها الواسعة، مدينتي تشتهر بموقعها الجميل وتناسقها، وأشجار فواكهها اليانعة، وأزهارها الشذية، وصبيتها وفتياتها، وسكانها هم خليط من جميع قبائل وعائلات المدن الليبية، وهم يعرفون بعضهم البعض، توثقت بينهم عرى المودة والمحبة، متمسكون بعاداتهم وتقاليدهم، التي ورثوها عن أجدادهم وآبائهم، يحبون احترام الكبير، وإعانة الضعيف، وإغاثة الملهوف، ومساعدة الجار، ومنازلهم دائما مشرعة الابواب، عشت طفولة منعمة مدللة بين أبي وأمي، وطفلة في بيت بلا أطفال.

وكانت تأخذني أمي معها للجيران والأقارب، وفي نزهاتها ورحلاتها الصيفية مع أبي، على شواطئ البحر،والمصايف الجميلة في سوسة ورأس الهلال ،وشحات، والبردي في أقصى الشرق، كان الجيران عندما يشاهدونني يداعبونني فهم يحبونني كثيرا ، ويبتسمون لي،عندما يرونني في غدوي ورواحي من المدرسة..

كانت أحلامي وطموحاتي واسعة لا حدود لها، عندما وصلت سن السادسة من عمري، سجلني أبي في مدرسة النور الابتدائية، واشترى لي الزى المدرسي، والحقيبة والكراسات والأقلام، وأيقظتني أمي في الصباح الباكر، غسلت وجهي بالماء والصابون،ارتديت القرنبولي الأزرق والمريلة البيضاء، مشطت لي أمي شعري، وربطته بأشرطة حمراء، على هيئة وردات،أعطتني كوب الحليب الساخن وقطعة خبز التنور،وقالت لي:- اليوم هو أول يوم لك في المدرسة يحرسك الرحمن.

لم أكن فرحة بالذهاب للمدرسة، بل كنت خائفة منها ومضطربة، وضعت لي أمي السندوتش، الذي يطل مختبئا بين الكراسات الملونة، حملت حقيبتي الجديدة، ولبست حذائي، وارتدت أمي فراشيتها الرمادية، وسرت خلفها على قدمي،لم تكن المدرسة بعيدة عن بيتنا، أخذتني أمي من يدي رغما عني، كنت أبكي يومها خوفا من المدرسة، تخيلت يومها

كأنها تحملني إلي حتفي، تربت أمي هي على كتفي بيدها الحانية، ما أن دخلت المدرسة، حتى شاهدت التلميذات بالزي المدرسي الأزرق، والمريلة البيضاء، وجدائلهن الحمراء، وقد وقفنا في صفوف منتظمة في ساحة المدرسة والمعلمات أمامهن.

تبدو المدرسة هادئة من الداخل، وجدرانها مزينة بالرسوم والخطوط، أخذتنا المباشرة وسارت بنا نحو الإدارة، ودخلنا على مديرة المدرسة، التي كانت تجلس على كرسيها،امرأة ضخمة الجثة، تبدو القسوة في عينيها الضيقتين، ترتدي تنورة سوداء وسترة طويلة بنية اللون، ووشاحا أسودا، تربطه بأحكام على وجهها المكتنز، يومها كنت خائفة منها و فرائصي ترتعد،ولو أجد الفرصة للذت بالهرب، بعد برهة رفعت رأسها إلينا، ولمحتني أبكي، حملقت في أمي بقسوة وغضب وقالت لها :- طفلتك هذي أنت مدلعتها يا حاجة.

لم تنبس أمي ببنت شفة، أشارت المديرة بيدها،لإحدى المدرسات أن تأخذني للفصل، كان دخولي للفصل أول يوم مربكا ومرعبا للغاية في فجر الطفولة، تركتني أمي وذهبت،اغرورقت عيناي بالدموع، وتشبثت بها، قادتني المدرسة وأدخلتني الفصل، التلميذات كنا يصوبن أنظارهن علي كأنهن يطلقن علي الرصاص، وهن مبتسمات ، والمدرسة تربت على

كتفي، قائلة : - لا تبكي يا صغيرتي،أنظري إلي زميلاتك في هدوء وهن جالسات على مقاعدهن.

كان طيف أمي هو ما يبعث في قلبي الصغير الاطمئنان، عندما قالت لي :- أنا انتظرك عند الباب الخارجي.

واختفت، ثم هتفت بي المعلمة متسائلة :- ما اسمك يا صغيرة ؟

أجبتها في خوف وتلعثم :- أمل.

- الله أمل اسم جميل ورائع.

أجلستني في الدرج الخشبي بمقدمة الفصل، والسبورة السوداء تبدو أمامنا، كانت تجلس إلي جواري ابنة جيراننا رحاب، وهي تلميذة مجتهدة،سمراء البشرة .

أخذت المعلمة تكتب على السبورة الحروف الهجائية، وتقرأ أمامنا بصوت عال، ونحن نردد خلفها :-. باء بطة، تاء تفاحة، ثاء ثعلب، جيم جمل.. ألخ ثم بعد أن انتهت الحصة الأولى، كانت الحصة الثانية، درس الحساب، والكتابة في الكراسات من رقم واحد حتى العشرة، ثم حصة التربية الدينية، وشرح الوضوء وكيفية الصلاة، وكانت الحصة الأخيرة للرسم، وانتهى اليوم الأول الدراسي ، وعندما خرجت وجدت أمي في انتظاري، عند الباب الرئيسي للمدرسة.

وهكذا تعودت من يومها على الاستيقاظ المبكر، تصحبني أمي حتى باب المدرسة كل صباح ، و تبقى عند إحدى جارات المدرسة، حتى ينتهي اليوم الدراسي ثم تعود بي إلي البيت، كانت تصر على مرافقتي دائما ، ومن خلال انتظارها اليومي لي، تعرفت هي على جيران المدرسة، وعلى النساء اللواتي كنا يبعن الحلوى، وأقراص الفلافل، وطرابيش الأرز المقلي، للتلميذات بالقرب من المدرسة، وكونت معهن صداقات حميمة، بعد عدة أسابيع تعودت على المدرسة وصديقاتي في الفصل، وهن يركضن في فناء المدرسة، كنا يتطلعن إلي أمي في دهشة، يحدقن فيها طويلا، يستغربن من فراشيتها ويهتفنا بي:- هذي جدتك يا أمل ؟

كنت أتضايق منهن كثيرا وأغضب وأرد عليهن قائلة:- لا أنها أمي..

كانت أمي عندما تصحبني كل صباح للمدرسة، وهي تسير معي لا تتوقف عن نصائحها لي، بل كانت دائما تقول لي :- احذري أن تركبي مع أي أحد في سيارته، فقد يخطفك، ويرحل بك بعيدا. - - حاضر يا أمي.

- وإذا قابلتك امرأة في الطريق، وأعطتك قطعة حلوى، لا تأخذيها منها، وإذا مسكتك من يدك، فلا تسيري معها.

- باهي يا أمي.

كانت أمي تخاف علي كثيرا، تبدو بروحها الحانية، ووجهها العطوف، ومحبتها الغامرة لي تهتم بملابسي وجواربي، وتحرص على أن أتعلم حتى وهي أمية،كانت تراجع المعلمات بشأني من حين لآخر ، وتخاف علي دائما من الحسد والعين، و تكتب لي التمائم والأحجبة عند الشيوخ والفقهاء،وتجبرني على أن أعلقها معي من الداخل، حتى عندما أتشاجر مع إحدى الطالبات، كانت تضع الخطأ على الطالبة الأخرى، بل وتشتكيها عند أهلها، كانت أمي أشد خوفا علي من أبي.عرفت من خلال دراستي الابتدائية، مديرة المدرسة هذه الحازمة والصارمة، حتى المعلمات كنا يخشينها، تحدق فينا بنظراتها المرعبة، وهي تفتش علينا كل يوم في طابور الصباح، ، وتعاقب الطالبات المخالفات للزي المدرسي، أو اللواتي يضعن الطلاء على أظافرهن أو المكياج، كنت وحيدة لأبوي منذ نعومة أظفاري، هكذا قدر لي أن أعيش في عالم الطفولة والصبا، ذات يوم أخذت أمي تمرر يدها على شعري، همست لي وهي تسألني: – أي شيء كنت تتمنين يا ابنتي ؟

قلت لها :– أختا أكبر مني أو أخا يحميني.

ضمتني أمي إلي صدرها، واغرورقت عيناها بالدموع.

مرت الأيام والأسابيع متشابهة صباحاً ومساء، وعندما وصلت الصف الخامس الابتدائي، بدأت أتضايق من توصيل أمي لي كل يوم للمدرسة، والتي لا تبعد كثيرا عن بيتنا، وكنت قد تعرفت على رحاب إحدى زميلاتي في الفصل، فطلبت من أمي أن تستريح في البيت، ولا داعي لأن تتعب نفسها وتذهب معي كل صباح حتى باب المدرسة، كانت زميلتي هذه، والتي تسكن مع أهلها الي جوارنا، تتقد ذكاء ونبوغا في الفصل، أصبحت أسير معها للمدرسة في كل صباح، ونعود معا عند الظهيرة، أحببت المدرسة ومدرساتي وزميلاتي الطالبات، واستراحة الافطار ، واللعب في فناء المدرسة، زاولت الأنشطة الرياضية والفنية، أصبحت أجيد قراءة الكلمات ، وأفك طلاسم الكلمة وأرتب الحروف، وأحفظ سور القرآن الكريم والأناشيد، شاركت في إلقاء الكلمات الصباحية بالإذاعة المدرسية.

وإن كنت أكره مادة الرياضيات، وخاصة القسمة المطولة، ولا أحب حتى مدرستها، وأمقت تسميع جدول الضرب، وأحب اللغة العربية والتربية الاسلامية، والتاريخ والجغرافية، والتربية الوطنية، والعلوم،والرسم، وحصة الرياضة البدنية..

وذات يوم وبينما كنت ألعب في استراحة الإفطار، مع التلميذات، تشاجرت معي إحداهن، فصفعتني بكلمة قاسية، في سخرية قائلة:

- أمشي يا بنت الملجأ.

أجبتها في ضيق وقلق:- أي ملجأ تقصدين ؟

كنت صغيرة يومها،لا أعرف ماذا تقصد بهذه الكلمة ؟ لم ترد علي تلك الفتاة، وانسحبت تجري من أمامي، تلك الكلمة التي ظل صداها يتردد في أذني، ماذا تعني بها ؟ حتى عدت في ذلك اليوم من المدرسة عند الظهيرة، غاضبة حزينة، سألت أمي عن معنى كلمة الملجأ هذه تساءلت :

- من قالها لك؟

- تشاجرت مع عائشة بنت عوض اللافي قالتها لي.

- لا تهتمي بها ولا تلعبي معها مرة أخرى.

- أنت ابنتنا وليس لنا غيرك.

اقتنعت مع الأيام أن لي أما واحدة، وعلي القبول بها كما هي..

كنت في الصغر أجوب مع رفيقاتي، شوارع وأزقة مدينتي الواسعة، وأدخل أسواقها الجميلة مع أمي أو أبي، أعشق السنابل والأقحوان في مزارعها، أشاهد السواني والنخيل..وأتلذذ بأكل التين الشوكي، والعنب

حين ينضج من الشجيرات التي في سور منزلنا ،والتين الأبيض، والرمان في موسم الصيف ، وأسبح على الشاطئ الرملي..

ذات مساء كنت في البيت، وفجأة وقع بين يدي كتيب العائلة الأخضر، فتحته على الصفحة الخاصة بي، وجدت اسما غريبا التفت إلي أبي يومها وسألته :- هذا ليس اسم أمي يا أبي..

تغير وجهه وأربد، وشعرت إنه قد تضايق مني وقال لي:

- لا أمك عندها اسمين..

وخطف مني أبي الكتيب يومها، وأخذه وأخفاه بعيدا عني.

صدقت يومها ، لكن ثمة إحساس غامض ظل يراودني، وهناك شيئا غامضا في حياتي، وخاصة في الاسماء، وبعد مضي الأيام والأسابيع نسيت كل شيء ..

حتى كان عصر يوم صيفي، خرج أبي برفقة أمي، لحضور مناسبة عشاء، عند أحد أقاربنا في المدينة، ولم أذهب معهما، بقيت وحدي بالمنزل، أصبحت أفضل الانطواء والبقاء في غرفتي، خطر لي خاطر فضولي، أن أدخل غرفة أبي، فتحت أحد الأدراج، وجدت به ملفا فيه أوراق عديدة، أخذت أطلع عليها، وفجأة وقعت عيناي على ورقة، شرعت أتهجى حروفها بصعوبة المحكمة الابتدائية... وفيها اسمي ما هذا الأمر؟ لم

أفهم الموضوع، كانت صدمة قاسية بالنسبة لي، اهتزت لها جوانحي، أحسست بأسى وحزن دفين، أعدت الملف إلي مكانه، أوصدت الدرج وباب الغرفة خلفي،ودخلت غرفتي تمددت على سريري،وأنا اتساءل من أنا ومن أكون ؟ ولم يجبني أحد عن سؤالي هذا، أنقذتني من هواجسي وظنوني ، طرقات على الباب نهضت فتحته، كان الطارق أبي قد جاء ليأخذني للعشاء عند أمي، ترددت في البداية، غير إنني ذهبت معه، ونحن نسير في الطريق على أقدامنا، كنت أهمس بيني وبين نفسي، أيعقل أنني لست ابنة هذا الشيخ الطيب الوقور؟ الذي أحبه وهو يحبني، وأناديه بأبي ويشاركني اللعب، ويمرح معي ويمازحني دائما، وعمره ما مد يده علي أو ضربني..

إذا كنت أنا لست ابنته، إذن ابنة من أكون؟ هل لي أب غيره في هذا العالم ؟لا أظن ذلك.

من أنا ؟ دائما هذا السؤال يتكرر لدي،وكلما طرحت هذا السؤال على نفسي أجدني عاجزة عن الاجابة عليه واتهرب من الاجابة اصعب الأمور لدي مواجهة الانسان لذاته لعل هذا الأمر سيتطلب جهدا وبحثا مضنيا ومؤلما مع الأيام القادمة.

عندما عدنا من أقاربنا، أخبرت أمي عن الورقة، التي عثرت عليها ووجدتها في دولاب أبي،استشاطت أمي غضبا وصاحت بي :- لا تفتشي مرة أخرى في دولاب أبيك.

- متأسفة يا أمي هذه آخر مرة..

اعتذرت لها كانت غاضبة، لكنها لم تأبه ولم تهتم باعتذاري، كأنها غير مقتنعة بما قدمته لها من مبررات ، ومن يومها لم أعد أناقش معهما هذا الموضوع على الإطلاق، وحاولت نسيانه أصبحت أخشى إغضابهما وتوترهما، خاصة وأن لديهما السكر والضغط، الآن فقط عرفت لماذا كانت أمي تنصحني الا أركب في أية سيارة مع أحد ؟ أو أذهب مع أية امرأة، الآن بدأت أعي تصرفات الآخرين حيالي، والعطف والشفقة علي، بدأت أعي تهامس أبناء الجيران علي، والمعاملة الخاصة لي.

أصبحت غير محبوبة لدى أقاربنا، أحسست أنهم كانوا يجاملونني فقط، من أجل أمي وأبي، خالتي لم تكن تحبني هي الأخرى، وتمنع أحيانا أبناءها وبناتها، من اللعب معي، وكذلك الخال أيضا هو الآخر لا يحبني..

عندما وصلت للصف الثاني إعدادي، دخلت فترة المراهقة،نزلت علي الدورة الشهرية،،وأحسست بالصداع والضيق والذعر،كنت استيقظ في كسل وارهاق، وأشعر بألآم ووجع في ظهري، أمي أصبحت تشتري

لي القطن (المودس) النسائي من الصيدليات، أخشوشن صوتي، وبرز نهداي، وأحسست بالتغيرات التي طرأت على جسدي، وانتابني الخوف والفزع، وامتنعت عن اللعب مع الصبيان، أخذت أهتم بشعري، وبجسدي وبأناقتي،واختيار فساتيني وأحذيتي، صرت أمقت المدرسة والمعلمات، والذهاب اليها خاصة عندما وصلت الصف الثاني أعدادي ، كثرت تساؤلاتي عن الهوية وازداد قلقي وحزني من أنا ؟ وأصبحت مهملة شاردة الذهن في الفصل ، أثناء شرح المعلمة للدرس قد لا انتبه لها ،لم أعد اهتم بدروسي أو واجباتي، كنت أدرك أنني بلا أحد، وأن ثمة مصير مظلم ينتظرني، ماذا أفعل عندما يموت أبواي ؟ هل سأجد أجد نفسي في الشارع بلا أحد، ملقاة مثل قطة ميتة على الرصيف ؟ عندها يوصد العالم بابه في وجهي..

وفي المدرسة كنت أنسل هاربة بعد الاستراحة من المقعد الخشبي، والسبورة السوداء التي تبدو أمامي ، التقط حقيبتي اتجه خفية نحو المحكمة القريبة على قدمي، أشاهد رجالا ونسوة وشرطة أمامها، ووجوها غريبة بين ردهاتها وممراتها، وقاعات فيها اناس، كل هؤلاء ماذا يفعلون ؟ وهل كل هؤلاء لديهم مشاكل ؟ كنت أتردد على مكاتبها وقاعاتها، كل يوم بعد الاستراحة، كنت أسأل أي موظف أقابله في

المحكمة، وخاصة من موظفي الأرشيف، عن أوراق تخص أبي أو أمي، أو تخصني أنا، ولكن دون جدوى، لم يجبني أحد على شيء.

وبعد عودتي ذات يوم من المدرسة، وجدت أبي غاضبا علي، وأخذ يعنفني وقد اكتشف أمري، وعنفني وشرر الغضب يتطاير من عينيه، قائلا في قسوة:

- أنت كل يوم بعد استراحة الإفطار، كنت تغادرين المدرسة وتذهبين للمحكمة لماذا ؟ ماذا تريدين هناك ؟ قولي لي.

- لا لم أذهب للمحكمة يا أبي...

- لا ذهبت الي هناك عدة مرات، حرام عليك الكذب يا ابنتي، لقد شاهدك جارنا يونس هناك وأبلغني بذلك بالأمس متسائلا عنك قائلا ابنتك ماذا ألم بها كل يوم تحضر بحقيبتها للمحكمة بعد الضحى..

-.....

- أنت ابنتنا الوحيدة وليس لدينا غيرك، وعليك أن تهتمي بدروسك ومدرستك فقط، وأنا وأمك لم نقصر في حقك ونوفر لك كل ما تحتاجينه، ولم نغيب عنك شيئا وكل ما تطلبينه تجدينه..

أجبته وأنا أعتذر له :- انني لن أكرر فعل ذلك يا أبي مستقبلا ولن أغضبكما مرة أخرى.

وفي اليوم التالي علمت أن أبي قد حضر للمدرسة، والتقى بالمديرة، وسألها عني، وأبلغها بضرورة مراقبتي، والتمام علي أثناء الحصص الأخيرة، وعدم السماح لي بالخروج من المدرسة مرة أخرى، إلا بعد نهاية اليوم الدراسي.

وفي اليوم التالي استدعتني مديرة المدرسة، وبختني أمام إحدى المدرسات، وتوعدتني على فعلتي النكراء هذه، بالهروب من الحصص الأخيرة، والخروج بدون أمر، وهذه مخالفة.

ثم قالت لي محذرة :- تكررين ذلك مرة اخرى سوف أعطيك ملفك وأطردك من المدرسة نهائيا توسلت إليها إنني لن أفعل ذلك مستقبلا.

في ذلك العام أتذكر أنني قد رسبت في جميع المواد، وأعدت سنة ثانية اعدادي من جديد مرة أخرى.

موقف مشحون بالألم، والحرج يتكرر أمامي دائما، عشته كطفلة على أعتاب الصبا، والجواب المقنع ظل دائما طي الكتمان، موضوع محرم لا يطرق أبدا أمامي من أنا؟ و لماذا لا يحبني الآخرون ؟ لا أعرف من هي أمي سوى هذه التي ربتني، لأنها هي التي تولت العناية والاهتمام بي، وكذلك من هو أبي سوى الذي علمني ووفر لي كل شيء

وبعد نجاحي في الشهادة الاعدادية، انتقلت إلي مدرسة الصفاء الثانوية، وحملت لنا الأيام في طياتها مالم يكن في الحسبان، من الفاقة والفقر ، السمة السائدة لطفولتي وصباي هي روح التمرد الدائمة ضد ضيق افق المجتمع الذي عشنا فيه وضد كل قيود الحياة

أعلن التقشف في البلاد وربط الأحزمة ،وحل الحصار الاقتصادي علينا، ومنع الاستيراد من الخارج، غابت الأجبان، والحلويات والشوكلاطة بأنواعها المختلفة ، والمعلبات،غابت المواد الغذائية،ومواد التنظيف وغيرها.

وفي كل مدينة أصبح هناك سوقا شعبيا، عليه زحام وطوابير طويلة، وإذا وصلته سلعة ما يوصد أبوابه من الداخل، ويرمون لكل مواطن صرة بعد دفع ثمنها عندما يفتشها يجد فيها القميص الذي لا يناسبه، والحذاء النسائي، أو علبة مبيد حشري، أنت وحظك أمشاط شعر، وعلبة حليب نيدو، وهكذا..

وغاب الأثاث، والسجاد المستورد، والأجهزة الالكترونية من غسالات وثلاجات وتلفزيونات، اعتمدنا على ما تجلبه لنا الأسواق العامة، والمنشآت، التي كانت تستورد القليل، وكل شيء فيها بالزحام والطوابير والواسطة، واللحوم أصبحت تباع خفية في البيوت من قبل

القصابين ، وهاجم الطيران الامريكي في14 ابريل سنة 1986م بيت معمر القذافي في باب العزيزية في طرابلس،، كما هاجم الامريكان مدينة بنغازي بالطيران، نتج عن القصف هدم بعض البيوت، وأصبحت المدن الليبية، تعتمد على نفسها وعلى سواعد ابنائها الليبيين، في جميع الحرف الصناعية، في الورش والبناء والصيانة، فقد اختفت العمالة الوافدة الأجنبية تلك الفترة من البلاد وتم ترحيلها.

كانت مرحلة صعبة تلك الفترة، لكنها علمتنا كيف نعتمد على أنفسنا في كل شيء ؟ وكل صاحب حرفة أو مهنة أصبح يمارسها بجدارة وإخلاص، ولا يتعفف ولا يتكبر، صار أبي يشتري لنا أسماك التونة من الصيادين، وأمي تصنع لنا منها التن، وتجهز السندوتشات، وأوصدت أبواب المحلات الخاصة رغما عن أنف أصحابها، وأصبح يطلق على التجارة الخاصة ظاهرة استغلالية، وتمت محاربتها في بلادنا، ومع مضي الأسابيع والشهور والسنوات، أوصدت تلك الأسواق أبوابها وعادت التجارة الخاصة من جديد..

أصبحت أتأمل وجهي المدور في المرآة، وعيني السوداوين الواسعتين، وأعتني بنفسي كثيرا، أقمت صداقات عديدة، من هنا وهناك مع صديقات لي، في الثانوية لكنها كانت صداقات مؤقتة، لم تكن لي

صديقة دائمة،،كنت أقطع الشوارع في مدينتي، مشيا على قدمي إلي المدرسة الثانوية، كانت الأعناق تشرئب إلي في غدوي ورواحي، اشتهرت كما يشتهر الضوء،مزجت في حياتي بين الجمال الساحر، والنضج المبكر،دخلت القسم الأدبي ثانوي وأحببته، وعثرت على بعض صديقاتي ممن كنا معي في الاعدادية، فتبادلنا القبلات والتمنيات، وتجاذبنا أطراف الحديث، وسردنا الذكريات الجميلة، وتقاسمت أعباء البيت مع أمي من طبخ ونظافة التي كبرت هي الأخرى.. أصبحت لي غرفة تخصني فيها سرير، وطاولة، وكرسي ، ودولاب ملابسي، وكمودينو، وتلفاز، ومسجل وأشرطة، وكتب ومجلات وصحف، ومكياجي وكل شيء يخصني ، واعتمدت على نفسي في حياتي، وهربت من الواقع، والجرح الغائر، بالقراءة والكتابة، وبحضور المعارض والأنشطة المسرحية، لم تكن هناك علي قيود من أبي أو أمي، في الحركة والذهاب، هما يثقان في ثقة عمياء..

وكنت أقف أمام المرآة عدة مرات في اليوم، عرفت الماكياج، وأحمر الشفاه.

منذ الإعدادية كان لي شغف بالأدب، وصار هو العاطفة المسيطرة على حياتي، ومصدر بهجتي وسعادتي، كنت التهم الكتب التهاما، قرأت كل أعمال ديكنز و دوستوفسكي،وكافكا، وفيكتور هيجو، وماركيز، وتشارلز ديكنز، وفي الأدب العربي : قرأت لحنا مينا، والصادق النيهوم، وإبراهيم الكوني،و جبران خليل جبران، وغادة السمان، وأحمد إبراهيم الفقيه الي جانب العديد من الروايات الجيد منها والرديء وقرأت الشعر لنزار قباني وفاروق شوشة وعلي صدقي عبدالقادر،وحسن السوسي، وراشد الزبير، وعبدالحميد بطاو، ومحمد الشلطامي، وعلي صدقي عبدالقادر وغيرهم، ووجدت متعة في القراءة، والانغماس في الكتابة،.قرأت كل كتاب وقعت عليه عيني، وكتبت عددا من القصائد الشعرية، والعديد من القصص القصيرة، كنت أرسل مقالاتي وقصائدي لصحيفة المدينة عن طريق صندوق بريدها،

ومع الليل كنت أنام ،على أنغام وأغنية الفنانة ذكرى محمد، (وحياتي عندك لوكان لي عندك خاطر...لا تراجع قلبك قبل ما يجي يوم وتسافر)

وسلطان الطرب اللبناني جورج وسوف (تعبت اخبي واداري جرحي .. أخاف تخوني في يوم ملامحي).

والمطرب البدوي أبو عباب الذي تحول من قارئ للقرآن في الأزهر، الي مطرب شعبي، يغني الأغنية البدوية، ونال شهرة واسعة في مصر وفي بلادي، وأصبحت أشتري أشرطته المتعددة، واستمع الي أغانيه، التي كان يؤديها على ألحان السمسمية وأطرب خاصة لأغنيته (وين الغالي يا دار وعينه كاحل لنظار)

ومع الصباح أصحو على أنغام واغاني فيروز وهي تشدو (أنا وشادي غنينا سوا)

كتبت الخواطر والقصص القصيرة والشعر، وفي ذات يوم بعثت بقصة قصيرة بعنوان (ذات يوم)، الي صحيفة البلدية، وبعد أسبوع عثرت عليها منشورة في إحدى صفحات الصحيفة ،كدت أن أطير من الفرح والسعادة يومها، وهرولت نحو المكتبة الوحيدة في المدينة، واشتريت عدة نسخ منها .

ومن يومها أصبح الكتاب أنيسي والقلم رفيقي، خاصة في وحدتي وغربتي، كنت أدون خواطري وهمساتي في مفكرتي، وأشعاري أولا بأول، كنت أنظر إلي سكان شارعنا من الشيوخ نظرة خاصة، وأتضايق من مراقبتهم لي كثيرا خاصة كبار السن، فما أن أمر من أمامهم، حتى

يصوبون أنظارهم علي، أحس وكأنهم يطلقون الرصاص علي، ويلوكون سيرتي بألسنتهم الحادة، ويخترعون القصص الوهمية حولي.

حتى الأطفال الذين كنت ألعب معهم في طفولتي، وأحبهم ويحبونني في الصغر، وعندما كبروا أصبحوا يكرهونني، لست أدري لماذا ؟ هل أنا شريرة ؟ بالرغم من أنني طيبة أحب الجميع، هربت من واقعي بالكتابة،ودخول عالم المجتمعات الراقية في الأدب والمسرح..واندمجت كثيرا في المجتمع الأدبي والفني، وأبي وأمي كانا يعطياني الحرية الكافية، في التنقل والعمل،والاستمتاع بوقتي، وحضور ومشاهدة العروض والمسرحيات، وانتسبت لفرقة المتفوقين، لكنني لم أمارس التمثيل .. عشت وكأنني شاب مدلل، بالضبط وليس فتاة، كنت أمتلك شخصية قوية مهابة، أرتدي البنطلون الامريكي، والبلوزة الحمراء أو الصفراء وأترك شعري القصير حاسرا، اندمج في تلك النشاطات الأدبية، وكان ذلك هروبا من واقعي المؤلم، والسؤال عن الهوية الذي دائما يتردد عندي، أحسست انني أدفع ثمن خطأ لم ترتكبه يداي، وأنني ضحية من الأف الضحايا في هذا المجتمع الظالم ، فكرهت العالم والوجود دفعة واحدة، حتى في علاقاتي مع صديقاتي، مجرد علاقات مجاملة وقتية زائفة، لم تحاول واحدة منهن أن تتوغل في أعماقي، كان يعذبني السؤال المر والعذاب

الداخلي من أنا ؟ ومن هم أهلي ؟ كل ذلك بعد اكتشاف أبوي اللذين ربياني وعلماني، ووفرا لي كل شيء حتى بعد أن كبرت، وصرت شابة، حاولت أن أتعرف على كل شيء من حولي، هربا مما أنا فيه، كنت أنا المجهولة النسب، أجد الاحترام والتقدير، لكنني كنت انظر اليه انه مجرد عطف أو شفقة، لأنني اتجهت للأدب ولفئة راقية من المتعلمين والأدباء والكتاب،أجلس بينهم وأحاورهم، ولكن هروبا من واقعي المؤلم،وبالرغم مما وصلت إليه من تعليم عال ومجد أدبي، إلا أنني كنت أتمنى لو كنت أعيش بين أهلي، أينما كانوا وحيثما وجدوا، غير أنني صممت على أن أكون شيئا جديرا بالاهتمام، وسط تلك الحياة البسيطة، ويكون لي كيان خاص بي.

ليتني دخلت كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، خاصة وأنني أهوى السياسة، وأجيد التحدث فيها، ولأ صبحت محللا سياسيا مثل الكثيرين، الذين دخلوا على القنوات الفضائية من كل حدب وصوب ،وهم لا يفهمون في السياسة شيئا، ويهترسون المهم صورته على القناة تظهر واضحة، جلية ببدلته ورباط عنقه، كل يوم تفاجأ بالعشرات ، يظهرون على القنوات محلل سياسي، ناطق أعلامي..

أصبحت أمي دائما تلتقط فراشيتها في كل ضحى، أو بعد الغداء، لم تتأخر عن مناسبات الجيران، وأنا اهتم بشؤون المنزل أرتب الحجرات، وأغسل الأطباق والأواني، واطهي العشاء..

وذات عصر سألتها :- وين ماشية يا أمي في ها العصر؟

أجابتني قائلة : - ماشية لجيرانا عيت سالم الترهوني عندهم ولدهم سعيد جاهم خبراستشهاده في تشاد نمشي انعزيهم ..

(تشاد تلك المعضلة التي ورط العقيد القذافي جيشنا فيها ، دخلها الجيش الليبي مساندا لها، بعد مشكلة أوزو ولتحريرها، حيث أن تلك البلدة هي ليبية، غير أنه في حربه تلك، وثق في القوات التشادية الصديقة فغدرت به، وهزمته شر هزيمة، ووقع معظم الجنود والضباط الليبيين في الأسر..

أصبحت أمي تعتمد علي في الطهي، ونظافة البيت وتنسيقه، وغسل الأواني والملابس، وفرغت نفسها للزيارات الاجتماعية افراح مآتم لمات نساء وعجائز الحي..

كنت أصلي لله في كل وقت، واتجه لله في صلاتي بالدعاء، طالبة النجاح وازالة القلق والهواجس التي تصاحبني بين الحين والآخر، والتساؤل عن كينونتي.. ظهرت نتائج الثانوية العامة، وكنت من بين

الطالبات الناجحات بتفوق، وقضيت شهر أغسطس مع أبي وامي ، في مصيف سوسة،على شاطيء البحر الجميل ، وفي رحلات رأس الهلال وشحات، متعة رائعة وسط الطبيعة الجميلة..

ومع بداية العام الدراسي الجامعي، تقدمت بإجراءات التسجيل للجامعة، بملف يحتوي كل مستنداتي، وسجلت رغبتي الأولى وهي كلية الآداب، قسم الفلسفة، وانتظرت عدة أسابيع ، وما أن علمت بظهور التنسيب ، حتى أسرعت إلي هناك حيث الجامعة وسط المدينة، كانت قوائم كثيرة قد ظهرت على لوحة الاعلانات، والطلبة والطالبات في زحام شديد ، يفتشون عن اسمائهم والكليات المنسبين اليها، بعد معاناة،في قراءة الاسماء، والتفتيش عن اسمي وجدته بصعوبة بالغة، لكنني أحسست بصدمة قاسية، عندما قرأت اسمي فقد كان منسبا لكلية القانون، لكن هذه ليست رغبتي ،كيف ينسبونني لهذه الكلية ؟ عدت للبيت كئيبة غاضبة، وبخفي حنين، قابلتني أمي عند الباب، في لهفة متسائلة :- ماذا حدث في تنسيبك ؟ان شاء الله خير.

- من أين يأتي الخير يا أمي.

- كيف..كيف ماذا حدث ؟

- نسبوني لكلية القانون وأنا لا أريدها، لو كان نسبوني لكية الاقتصاد والعلوم السياسية راني قبلتها..

وفي حيرة وتساؤل قالت :- وماذا ستفعلين يا ابنتي؟

- الله غالب ماذا أفعل يا أمي سوف التحق بها في البداية وأجرب هل تروق لي أم لا.؟

- أنا يا ابنتي لا أعرف القراءة أو الكتابة، وأنت أدرى بمصلحتك وأدرى بنفسك، وربنا يوفقك إن شاء الله.

دخلت غرفتي، أطلت علي أمي قائلة :- الغداء جاهز يا ابنتي

أجبتها :- ليست لدي شهية الآن أود النوم قليلا..

بدأ العام الجامعي الدراسي الجديد ، وانخرطت في دراستي الجامعية بكلية القانون، والقلق وعدم الرغبة فيها يسيطران علي ، لكنني لم استمر فيها سوى بضعة أسابيع،حتى تركتها ، ولم أعد أحضر المحاضرات، فقد تبين لي أن موادها جافة وجامدة، ولا استطيع ان استمر فيها، فهربت منها، وفي اصرار وتحد، تقدمت بالنقل إلي كلية الآداب قسم اللغة العربية ، ولكن للأسف كانت المماطلة في البداية، حتى أخبرت أبي والذي تدخل لتسجيلي في كلية أخرى، فقد كانت له علاقة بالمسجل العام في الجامعة، حيث حدثه وقدم له طلب النقل الخاص بي، فوافق على نقلي

وتنسيبي لكلية الآداب ،وهي أفضل لي من القانون بالنسبة لي ، انتقلت لكلية الآداب الحمد لله، واستلمت جدول مواد السنة الأولى : وهي فقه اللغة، والصرف والنحو، والبلاغة، والنقد، والمكتبة العربية، ومصطلحات انجليزية، وعلم النفس التربوي، والادب الجاهلي ، وبدأت أحضر المحاضرات في الصباح ، وأتقرب إلي من حولي من الطالبات، وأتلمس خطواتي في ملامح هذا المجتمع الجديد، وهذه الكلية الحديثة التي عشقتها، لأن فيها مواد مشوقة مثل البلاغة والنقد، والمكتبة العربية، والأدب الجاهلي وعلم النفس التربوي وغيرها.

وأساتذتها كانوا ليبيين وعراقيين ، وهي كلية حديثة بمدينتي، وعثرت على زميلاتي سميره وياسمين ووفاء، ممن كانوا معي في الصفاء الثانوية العامة، وكم سعدت بهم وبرفقتهم في الجامعة..

، بالرغم من انني كنت مغرمة بقسم الفلسفة،ولكن قد تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن، حتى كلية اللغة العربية لابأس بها، تعودت على ارتداء الكعب العالي،واختيار الملابس الأنيقة، والنظر للمرآة طويلا قبل الخروج، والمكياج.والتحقت بالكلية وتعرفت على بعض الطالبات، اللواتي معي في السنة الأولى لغة عربية ، هذه سميرة المتفوقة، والتي تواظب على دخول المحاضرات قبل الجميع، وتجدها دائما في الصف

الأمامي ، متوسطة القامة، هادئة خجولة، وعند قرب موعد الامتحانات، الجميع كانوا يتقربون منها، وهي لا تبخل على أحد، دائما تساعد الجميع،وهي من أسرة فلسطينية، تقيم في مدينتي من عشرات السنين، وهذه ياسمين الطويلة القامة، ذات الروح المرحة التي تجلس الي جواري في وسط القاعة، وهذه وفاء الفتاة الفقيرة الطيبة الخجول، التي تجلس خلفنا، بينما انا اللغز المحير والذي لا يرتبط بصداقة طويلة مع أي طالبة، كان يدرس لنا مصطلحات انجليزية ، دكتور شاب متغطرس لانفهم منه شيئا، أما الدكتور العراقي معن الكاظمي أستاذ الادب البديع، فهو محبوب من الجميع ومتواضع، ومتمكن من مادته، ودائما يبسطها لنا ، وهو حنون ومبتسم دائما..

ومع التسعينيات بدأت البلاد تشهد انفتاحا وانفراجا، ورواجا اقتصاديا واختفت الأسواق العامة، والمنشآت الاشتراكية بعد فشلها، وعادت التجارة الخاصة والاستيراد الخاص، وفتحت حدودنا البرية والجوية والبحرية مع العالم، ودخلت العمالة الوافدة بالطرق المشروعة وغير المشروعة من جديد..

كنا نخرج بين المحاضرات، أنا وسميرة وياسمين، إلي كافتيريا الكلية نشتري السندوتشات والشكولاطة، والنسكافيه والقهوة والعصير ونتجاذب أطراف الحديث، ونحكي عن طلاب وطالبات الكلية، ونسرد الحكايات من هنا وهناك، والقصص الجذابة والمثيرة.

واستمرت علاقتنا قوية مترابطة في الكلية، حتى اقتربت امتحانات السنة الرابعة النهائية،عكفنا على المذاكرة في بيوتنا، ومحاولة فهم المناهج والمذكرات منذ أسبوع ، في النحو، وعلم البديع، والأدب المقارن، والنقد الحديث، والأدب الحديث، والشعر الحديث، واللسانيات، والادب الليبي، والأسلوبية، والاعجاز القرآني..

وكان أول يوم لنا في الامتحان،النقد الحديث ، فهو ليس مجرد امتحان عادي،كان صعبا للغاية، ولجنة متشددة كل من يحاول الغش يطرد ويحرم من الامتحان، والمسافة بين كل طالب وآخر مترين ، كانت ياسمين في آخر القاعة تكتب مسترسلة في مادة النقد الحديث ، ونحن وباقي الطالبات نكتب الإجابات التي نعرفها، وننتظر علنا نحظى بإجابة سؤال عن هذه الاسئلة الصعبة منها نكتب بمهل ونحن نحدق لأعلى حتى مضى نصف الوقت بعد ساعة الوقت اجبت عن ثلاث اسئلة من الاسئلة الخمسة، ثم سلمت ورقة الاجابة للجنة، وفي اليوم التالي امتحنا

في مادة الاعجاز القرآني، وكان الامتحان سهلا، وإن كنت قد وصلت القاعة متأخرة في تلك الصباح، فقال لي الدكتور المشرف على القاعة في غضب :

- كان بإمكاني أن أمنعك من الدخول لكن هذه المرة الأخيرة لك.

شرعت بكتابة الاجابة على الاسئلة،وكانت الاسئلة غير معقدة وواضحة، وغدا الامتحان الأخير في علم البديع وهذه مادة من المواد المفضلة عندي، ويعجبني الدكتور لأنه ذكي وواعي، الذي يقوم بتدريسها لنا يعرف بأنه صديق للطالبات، وانتهت الامتحانات أخيرا، وكان بحث التخرج، الذي قدمته، عن الشاعر الكبير رجب الماجري والغزل في شعره، وظهرت النتائج، وتخرجنا من الجامعة، وفرقت بينا السبل،وافترقنا كل مضى إلي غايته وسبيله.

توقفت عن نشر تحقيقاتي، ومقالاتي وقصصي القصيرة، في تلك الصحيفة ، حتى نهاية الامتحانات ومشروع التخرج وظهور النتيجة، لم تكن لدي صداقات ناجحة بالجامعة، بل هي صداقات مؤقتة وزائفة، عودت نفسي على العمل الصحفي التطوعي، في أوقات الفراغ كنت أجري التحقيقات الصحفية عن المرأة، ودخولها مجالات العمل إلي جنب أخيها الرجل، وأنشرها في تلك الصحيفة، حيث كان رئيس التحرير،

دائما يأخذ بيدي، وينشر لي خواطري وقصصي وأشعاري، وتحقيقاتي في الصحيفة باستمرار، حتى أصبحت وكأنني واحدة من أسرة تحرير الصحيفة، بل وخصص لي مكتبا بالصحيفة خاص بشؤون المرأة.

كتبت ليلة البارحة قصيدة عن الشتاء، بعد أن احسست بالبرد القارس، كنت أتأمل هطول الأمطار الغزيرة من زجاج نافذة غرفتي، انه ديسمبر ، كانت أبيات قصيدتي تحمل التساؤلات وهي بعنوان الي متى أيها الشتاء ؟ وعندما انتهيت من كتابتها، لم أقرأها الا مع الصباح بعد ان استيقظت من نومي، واحتسيت كوبا من الشاي بالحليب، وخبز التنور، وارتديت البلوزة والقونه والمعطف عليهما، وقررت الذهاب للصحيفة، عادة ما لا يعرفه الكتاب عني، أن قصائدي من النثر الحديث هي ذاتية تعبر عن وقعي، وهي مطابقة لحياتي في الواقع وتطغى عليها عادة مسحة من الحزن الدفين، حيث أيامي التي تمضي مسرعة ،وأمنياتي التي تواصل الاحتضار، لكنني بالرغم من ذلك كنت أركض وأبحث عن بصيص من الأمل، أيتها الليالي الكئيبة أغربي عن وجهي، هذه الليلة أجلس وحيدة في غرفتي، وقد أطفأت الحلم فوق وسادتي، وأشعلت الحزن في عروقي، كي لا يأتي النهار أبدا، واتساءل ترى أين تذهب الذكرى ؟ أين ترحل الوجوه،وأصوات العصافير، وأحلام الصغار، من ينضج فاكهة القلب،

حين الحب ثوران براكين، وهذا الليل حبات مطر تبل الشفاه، من يقف على رموشي كطائر بلا لون، وينفخ في عصاه الريح، خريف السنين الباردة في صوت الديكة ونداء المزا ريب.

بعد أن قرأتها، على رئيس التحرير في مكتبه بصوتي، هتف بي :

- يا لها من قصيدة رائعة وسوف أنشرها لك.

قلت له :

- أأعجبتك ؟

.. أجابني :

- أنت تعرفين أنني لا أقرأ إلا لك في الشعر الحر لأنه بصراحة يعجبني شعرك.

وعندما اطلع عليها صديقي الشاعر سالم نصر، أعجب بها أيضا، بل وخطفها مني، قائلا :- سوف أنشرها لك في مجلة الفصول الأربعة.

وبعد أسابيع وجدتها منشورة في الصحيفة، وأيضا في تلك المجلة، فسررت بها، كما صدر لي ديوان شعري، كتب عنه النقاد في بلادي، ومجموعة قصص قصيرة، ورواية بعنوان(الأمس المفقود) ووجدت متعة في القراءة والكتابة ولكن كل ذلك لا يهمني أن أكون شاعرة أو قاصة، أو مشهورة في المجال الأدبي، أو عضو في رابطة الأدباء والكتاب، بقدر ما

يهمني أن أعرف من أنا ؟ أن أعرف عائلتي، أعرف قبيلتي وأنتمي إليهم بدلا ما أنا مجهولة النسب، هل يتحقق كل هذا في يوم من الأيام ؟ ما زلت ابحث عن جذوري وكلي امل وتفاؤل.

بعد عدة أشهر من مرض أبي، وأصابته بالتهاب في الرئة، نتيجة اسرافه في التدخين، ساءت حالته الصحية، ذهبنا به الي مصحة شحات الصدرية، ومصحة الكويفية، وبعد أن تعب أدخلناه، غرفة العناية الفائقة في المركز الطبي بالمدينة، ثم دخل مرحلة الغيبوبة، لم يلبث طويلا حتى رحل عنا إلي الرفيق الأعلى، حتى أخذت أمي تندب عليه وتبكي، ارتدت أمي ثوب الحداد عليه، ورفضت مقابلة أي رجل لعدة أشهر، حزنا على والدي، اختفى من حياتي ذلك الأب الطيب الودود، والذي كان وجهه يفرحني في مرح الطفولة، والذي كان يربت دائما على كتفي بحنان غامر،وبيده الحانية، أبي الذي رباني ودللني كثيرا،وأنا صغيرة كان لا يتحمل في شيئا.

تذكرت قصيدة ابي للشاعر الكبير نزار قباني والتي يقول فيها:

ضلال أنا لا يموت أبي

ففي البيت منه روائح رب وذكرى نبي

هنا ركنه تلك اشياؤه

تفتق عن ألف غصن صبي

جريدته تبغه متكاه

كأن أب بعد لم يذهب

وصحن الرماد وفنجانه

على حاله بعد لم يشرب

ونظارتاه أيسلو الزجاج

عيونا اشف من المغرب

بقاياه في الحجرات الفساح

بقايا النور على الملعب

أجول الزوايا عليه فحيث

أمر أمر على معشب

أشد يديه أميل عليه

أصلي على صدره المتعب

أبي لم يزل بيننا والحديث

حديث الكؤوس على المشرب

يسامرنا فالدوالي الحبالى

توالد من ثغره الطيب

عوضتني أمي عن أبي بعد رحيله، بحنانها وعطفها علي، وتدليلها لي.

بعد سنة من رحيل أبي، جلست معي أمي ذات عصر، وعندما سألتها عن المرأة التي كانت في زيارتها منذ قليل :

أجابت :- هذي جارتنا عازة عبدالحفيظ..

- ماذا تريد يا أمي ؟

- هي جاءت تطلب يدك.

- لمن يا أمي ؟

- لابن أختها مبروكة..

- لكن يا أمي أنا ما زلت لم أفكر في الزواج بعد .

-يا ابنتي انت كبيرة توا، ولست صغيرة، وقطار العمر يمضي بك، وأنا أريد أن فرح بك قبل أن أموت..

- بعيد السوء عنك يا أمي، وربنا يعطيك الصحة والعافية وطولة العمر

- واللي اطلباتك هي الحاجة عازة له وهو شاب مؤدب وموظف في الدولة

- ما اسمه يا أمي ؟

- اسمه محفوظ حمد.

- لكن يا أمي انا لا أعرفه.

– سهل الأمر سوف تتعرفين عليه الأيام القادمة، وهو ليس به عيب وليس عندك ما تقولي فيه، شاب طيب ومن عائلة عريقة.

- ما ترينه مناسبا لي يا أمي أنا موافقة عليه.

- على بركة الله حتى نفرح بك وأنا ما زلت على قيد الحياة.

- بعيد السو ربنا يطول لنا في عمرك يا أمي..

ولأنني كبرت وتجاوزت العقد الثاني من عمري، وتخرجت من الجامعة وتعينت موظفة ،كانت أمي تريد أن تطمئن علي، لابد لي أن أتزوج،بعد أيام تقدم الشاب لخطبتي، والذي لا يتحدث كثيرا، و لم تكن بيني وبينه أي علاقة عاطفية سابقا، إلا أنني وافقت بناء على طلب أمي، ورضيت بالأمر الواقع، بدلا من أظل عانسا هكذا طول حياتي، لأنه لم يكن لدي خيار آخر غيره، و زارني في البيت قابلته وجها لوجه في المربوعة بحضور امي ، يبدو شابا طيبا مهذبا، خجولا صامتا لا يتكلم كثيرا إلا إذا سألته،نعم يامحفوظ أنت خطيبي أستطيع أن أمشي معك دون ان اخشى أعين الآخرين ذهبت أمي لتحضر له العصير التفت اليه قائلة :

- كل الذي أود أن أعرفه منك في البداية ما هو سر تعلقك بي وطلبك لي أنا بالذات.

بادرني في سرعة بديهة وذكاء قائلا :

- لأنك الفتاة الوحيدة في الحي التي رأيتها وأحببتها من قلبي..
- أين كنت تشاهدني ؟
- في ذهابك للجامعة وعودتك منها، وأنت أملي وأنا أريد أن أقضي معك العمر كله..

هكذا رفرفت أجنحة الحب والتفاهم بيننا، عندما زارني خطيبي ليطلب يدي، ومنذ لقائي الأول به، في حين أن لقائي به لم يتعد الساعة، وجاءتني خالته ومعها احدى قريباتها بعد ايام ،والبستني دبلة الخطوبة وأعطتني الشبكة، وبعدها أخذ خطيبي يتردد علي ، في مكتبي بالجامعة مع الصباح، وفي بيت امي في المساء في اطار الاستعداد للعرس، وتحديد موعد الزفاف، وتجهيز ما يلزم شراؤه من الأثاث، وفساتين الزفاف والأشياء الأخرى، كنا نتناقش في كل صغيرة وكبيرة، وكل شاردة وواردة، من أمور العرس في توفير كل ما يلزم شراؤه وفي المساء، وأطل علي في المنزل بعد عقد قراني أطلعته على الغرفة الواسعة التي سوف تكون غرفة نومنا وعش الزوجية السعيد، التي سوف نقيم فيها، كنت أذهب أنا

وهو للسوق لاختيار حاجياتي من فساتين وغيرها في سيارته،كنت أتجول في المدينة في محلاتها، لأوكد للجميع انني ارتبطت بهذا الشاب الذي أصبح خطيبي..

وكنا نجهز للعرس معا، كنت سعيدة بوجوده معي، كان يهتف بي دائما عند الشراء اختاري ما يعجبك وليس للسعر أهمية يا حبيبتي، لكنني كنت مقتصدة ولست مبذرة لأنني أعرف ظروفه المادية والاقتصادية جيدا.

وعند اقتراب اليوم الموعود، تقدمت للجامعة بطلب إجازة، وتحصلت على الموافقة، وكان أسبوع العرس، بداية من يوم الثلاثاء، وهو يوم الرمي ويسمى يوم الدبش، حيث قدم لنا أهل العريس الكسوة، ومحتويات العرس من ملابس وهدايا لأقاربي، والقفة التي تحتوي على الخردوات ومواد الزينة، من الحنة والبخور بأنواعه، والسواك والكحل والعطر، وأدوات التجميل، والبدلة الكبيرة والبدلة الصغيرة،وهي مطرزة بالذهب والفضة..

كما أحضروا لنا الخرفان والتموين من أرز وزيت، وخضراوات ومتطلبات الأكل لأهلي والتنظيف..

وفي اليوم التالي الأربعاء، كان يوم الحنة والتطريفة،ارتديت فستاني، وحملني ابن الجيران في سيارته الي الكوافيرة عند الظهيرة ، في وسط المدينة، ومعي البيلو في كيس من البلاستيك، وأوقف سيارته أما م المحل، حيث ترجلت منها، وغادرني الشاب، على أن يعود الي بعد العصر ليأخذني، استقبلتني الكوافيرة السورية الجميلة، ومساعدتها الليبية، بالترحاب والتهاني،كانت في العقد الثاني من عمرها،شعرها قصير أصفر،وجهها مدور ابيض، وأخذت تقوم بتزييني، وعملت لي تسريحة انيقة لشعري، ثم النقش والوشم بالحناء على يدي ورجلي، وانا أتفصد عرقا، واكتمال مكياجي وطلبت مني النظر إلي المرآة وفي الموعد المحدد جاءني الشاب، وقد قامت الكوافيرة بتلبيسي البيلو بالطريقة الصحيحة ثم البستني الطرحة البيضاء والقفازين الأبيضين ، ونقدتها أجرها بزيادة، وفي الموعد وصلني ابن الجيران بسيارته ، وأوصلني ابن جيراننا حتى باب منزلي، حييته وشكرته الشكر الجزيل،وتمنيت له ان يرزقه الله بفتاة أحلامه، دخلت المنزل الذي كان يكتظ بالنساء والأطفال، أمشي الهوينى بالبيلو وبكامل زينتي، أطلقت النسوة الزغاريد، وبدأنا النسوة في الرقص والغناء، على ايقاع الطبلة، ومع المساء أطلت خالة العريس حيث

هنأتني وقبلتني، ووضعت في كفي قليل من الحناء وورقة بعشرة دنانير هذه عادة متوارثة .

ويوم الخميس ايضا ذهبت للكوافيرة للمرة الثانية، حيث قامت بعمل مكياج لوجهي وتسريحة شعري، وعند العصر كنت جاهزة، ارتديت الفيلو فستان الزفاف الأبيض، وعدت في سيارة ابن الجيران،ما أن وصلت حتى كان الغناء والرقص على انغام الفرقة، حتى المساء أطل عريسي في مقدمة رتل من سيارات رفاقه، وهو بدلته الرصاصية والعطر يفوح منه، وتصحبني احدى النسوة من منزل أهلي، وهم يرمونني بالورود، يأخذني هو من يدي، ويفتح لي باب السيارة ،حيث يحملني فيها ويطوف بي شوارع المدينة،وخلفنا سيارات أصحابه وهي تصدر أصوات الفرح، وأنا في زهو وفرح، حتى ترجل بي امام باب الفندق الكبير، وكان قد حجز لنا فيه ثلاثة أيام، حيث ترجلت، وقد مسكني من يدي، بينما أحد اصدقائه يقوم بتصويرنا، ونحن ندخل الفندق ثم ودعونا و قفلوا عائدين الي بيوتهم، بعد ان تمنوا لنا ليلة سعيدة، الفندق كان يخيم عليه الهدوء والسكينة، دخلنا جناحنا في الدور الثاني، أوصد الباب من الداخل، أصبحنا وحدنا في غرفة النوم، والثلاجة مكتظة بالعصائر والشكولاطة والمياه المعدنية، السعادة تغمرني في ليلة العمر

هذه، وتقدم لي عريسي بكأس من عصير البرتقال، ثم نهض ووضع في المسجل، شريط أغنية كوكب الشرق أم كلثوم أنت عمري، وطلب مني خلع فستان الزفاف الأبيض، وهو يتغزل بي ،ثم وجدنا نفسينا على السرير الناعم بعد ان تجردت من فستان الزفاف، تلك الليلة ليلة العمر لم يغمض لنا فيها جفن حتى الصباح..

وبعد أكثر من شهر عدت لمواصلة العمل في الجامعة، وأصبح زوجي يأتي الي ليأخذني بسيارته الي البيت عند الظهيرة، ولم تعد لدي طموحات في الأدب والصحافة، وغادرتني نوبات الكتابة الملحة، منذ زواجي توقفت عن الكتاب،أي كتابة وأي شعر وأي قصة، علي الاهتمام بشؤون زوجي وبيتي،هو الأفضل ، كان الاهتمام بشؤون بيتي يأخذ وقتي، لكن هاجس الهوية والتساؤل ما يزال ينغص علي حياتي، ويشكل كابوسا فظيعا بالنسبة لي..

وبعد أشهر بدأت بطني تبرز وتتسع وتستدير، أخذت ارتدي الملابس الفضفاضة ، وأشعر بتقلبات الجنين داخل بطني،كنت أستريح بالرقاد على ظهري، أشعر بالراحة الجنين بدأ ضاغطا علي ، وثمة شيء بدأ يتحرك في بطني، وأحيانا يزعجني في الليل بحركته الدائمة، أحس

بضربة قوية أو لكمة في منتصف ظهري، أو حركته الشديدة فأصحو فجأة.. وينتابني القلق يوم لا أحس بحركته أو اتلقى منه ركلة في بطني..

بدا صغيرنا يتكور في بطني ، يثبت وجوده ومع نهاية الشهر التاسع، أخذني زوجي ذات ليلة للمستشفى قسم الولادة، كشفت علي الطبيبة، عندما حان الموعد كنت خائفة مذعورة، لا توجد ولادة بدون ألم وخاصة أنها المرة الأولى، وبقيت اليوم الأول، وفي اليوم التالي وعند الفجر تعبت، قامت الطبيبة المتخصصة بأجراء عملية الولادة، وكانت الحمد لله ولادة طبيعية، وليست قيصرية

بعد ساعات من المخاض ، جاء الامل الذي صنعناه طفل جميل، احتضنته أمي وهي مسرورة تهتف بي :- انه يشبهك يا أمل.

، صرخ طفلي يومها صرخة قوية، وأغمض عينيه، عندما رأى النور شعرت بالفرحة والراحة والسعادة، زارني زوجي في غبطة وابتهاج، وهو يحمد لي بالسلامة ثم هتف بي وهو يحتضنه فرحا :- ماذا نسميه؟

قلت له :- نسميه على اسم أبي..

عندما شاهدت طفلي الأول، انه طفل جميل بعينين ضيقتين، ووجه دائري صغير.

كان يبحث بفمه الصغير عن ثدي،وهو مغمض العينين، ويعضني وجذبته نحوي ،أخذ يرضع، وفي اليوم الثاني جاءني زوجني فرحا وحملنا للبيت بسيارته.

وبعد أشهر قل اهتمامي بالصحافة والأدب،والتردد على مكتبي بالصحيفة، وانشغلت بشؤون بيتي وزوجي، وبذلت جهدي من أجل إسعاد زوجي، وتربية ابني التربية الصالحة الحسنة، وتعليمه في المدارس الجيدة،وتوفير كل احتياجاته،وجعل الجميع ينعمون بالغبطة والسعادة في هذا الزمن الصعب، الذي أصبحت فيه الحياة صعبة للغاية.

وان كانت هواجس البحث عن الهوية، مازالت تقلقني والكابوس المزعج يرافقني، دائما من انا ومن هي أمي ومن هو أبي ؟

لم تكن خالتي خديجة السجانة، تحمل قلبا طيبا تجاهي، كانت أشبه بالوحش الكاسر، صورتها في ذاكرتي كانت ضبابية مشوشة، عندما تزورنا، لا أنجو من سياط شتائمها لي، و بعد فترة مرضت هي مرضا شديدا، وهجمت عليها الشيخوخة مبكرا، وجف عودها وحشرجت روحها في ليلة من الليالي، وكانت أمي دامعة العينين عند رأسها وهي على السرير، أليست هي أختها، واجتمعنا عند رأسها أنا وأمي وهي تحتضر،

طلبت من أمي كوبا من الماء،نهضت أمي لإحضاره لها، دعتني هي للاقتراب منها، وهمست لي بصوت متقطع في أذني :

- فتشي عن أمك يا ابنتي فهي على قيد الحياة ما زالت.

ثم ذكرت لي اسمها واسم والدها فقط.

هكذا فاجأتني خالتي بهذا السر، الذي أبحث عنه من سنوات طويلة، أخيرا اعترفت لي به.

كانت خالتي تفتح عينيها بصعوبة بالغة، وكأنها قد شعرت بتأنيب ضمير ها، لكنها كانت صحوة متأخرة، وأنفاسها بدأت مضطربة متقطعة، وهي تحشرج وتصطك أسنانها، وبعد أن أعطتها أمي كأس الماء، التفت إليها قائلة بصوت متقطع :- عينك من بنتك يا أختي..

ثم أسبلت أجفانها وفارقت الحياة، في إغماضه أبدية في ذلك المساء الحزين، كنت أحبها بل وأغدق عليها من راتبي، بالرغم من أنها كانت في الواقع هي لا تحبني، وتحقد علي،وتجاملني في وجهي فقط، وكانت دائما تحرض أمي علي، بل وتشوه صورتي عندها، لكن أمي كانت دائما ترد عليها بدون مجاملة : – ابنتي أمل هذه شخصيتها قوية، وأخلاقها عالية وعندي فيها ثقة كبيرة وين ما تمشي الله يربحها ويسعدها.

غريب أمر الموت بقي في الجوار، يتحرك ببطء حولنا، يبحث عن شخص ما يسلب حياته،

خالتي ترحل عن الحياة بعد أبي الحنون، ولكن منها لله فقد رحلت عن دنيانا، ولا أملك إلا أن أدعو لها بالرحمة والمغفرة..

ابني المقيد بالصف الرابع خضع في اليومين الماضيين، لامتحان صعب في مادة الرياضيات، في درس القسمة المطولة، وضعني وجها لوجه، في موقف محرج أمام هذه المادة التي كرهتها، في بداية دراستي،وأتذكر كيف كنت أتهرب منها، وجدت نفسي في مأزق حقيقي، أمام ابني انا لا افهم فيها شيئا، فما كان مني إلا أن استعنت بأحدي صديقاتي، وهي معلمة متخصصة في مادة الرياضيات، جاءت عصر ذلك اليوم وشرحت له الدرس أمامي، الذي كرهته طيلة سنوات الدراسة، إلا وهو القسمة المطولة، بطريقة السهل الممتع، والمثير إنه جاء اكتشافي المتأخر، هذا ليخبرني أن هناك دروسا في الحياة نفهمها، في وقت متأخر جدا، وبأن فهمنا الأولي لها قد يكون خاطئا، وعلينا أن نعيد اكتشاف الأشياء لها من جديد، وأن لا نكتفي بالحكم الأول لها، حقيقة لقد ندمت على كرهي لمادة الرياضيات طيلة الوقت، ظنا مني أنها المادة الأكثر تعقيدا وجمودا، بينما هي من المواد، التي تحمل في طياتها المتعة والدهشة، وهكذا

أنا أجني حصاد الندم لأحكامي المتسرعة، في أغلب البدايات، ومرارة اكتشافاتي المتأخرة بعد فوات الأوان. لم تعد لدي سوى أمي العطوف التي كبرت.

بعد ثلاث سنوات ساءت حالة أمي الصحية هي الأخرى، وأصبحت أتردد بها على العيادات لعلاجها واجراء التحاليل الطبية لها، فهي مصابة بالسكر والضغط، وذات عصر تلاحقت أنفاسها بسرعة، ومالت على جانبها الأيمن، وودعت الحياة، هكذا بكل بساطة، عندها أطلقت صرخة قوية مدوية،، علا الصراخ والنحيب في البيت، أسرعن الجارات إلي وهن يحتضنني ، وهن يندبن مولولات،وسرعان ما أقبلت علي الجارات، والتفت حولي نساء الحي يصرخن في صوت واحد، كانت أمي مسجاه فوق السرير غطي جسمها ورأسها، ووجهها المليء بالتجاعيد، والعينين مغمضتين وفمها مطبق، كانت العيون الباكية تحاصرني، والصراخ يدوي في خيمة العزاء أمام المنزل، واحدى النساء وهي مسنة تصيح بي، وتربت على كتفي،

- هذه طبيعة الحياة يا ابنتي وأمك كانت امرأة طيبة.

وسرعان ما أقيمت خيمة عزاء للنساء، وأخرى للرجال، ووري جسد أمي الطيبة الثرى، في مقبرة المدينة قطعت خدودي على رحيلها، وانهمرت دموعي على خدي، كان ذلك اليوم يوما حزينا مشئوما، يوم ان رحلت أمي إلي خالقها، ورحلت معها الطيبة والحنان والحب والامان، رحل معها كل شيء جميل في حياتي، تاركة خلفها مرارة وغصة في حلقي، وحسرة في نفسي ، رددت يومها يومها بيني وبين نفسي :- البيت بعدك يا أمي كئيب وموحش رحمك الله وغفر لك.

أمي التي قامت على تربيتي ونشأتي، والسهر على راحتي، ورعايتي وتعليمي، وحمايتي كانت لي نعم الام بمعناها الحقيقي، الام التي لم أكن في جوفها، ولكنني كنت في قلبها الطيب، الذي أحبني ومنحني الحنان، وأنقذني من الضياع والتشرد، فلولاها ماكنت أنا، هي نبع الحنان والأمومة ستظل روحها الطيبة، هي وابي ترافقاني ورغم الغياب ، فأني أشعر بدعواكما دائما لي، فليست الام هي التي تلد، وتترك ابناءها للمجهول كالسلحفاة، التي تترك ابناءها لأمواج البحر.

زمان كانت أمي دائما تردد :- ايفكنا الله م الحرب وسنين الكرب

وكنت أسالها انا ضاحكة عن أي حرب تتحدثين يا أمي ؟

متناسية إنها كانت من مواليد منتصف الثلاثينات، وإنها ابنة الحرب العالمية الثانية، الحرب التي وقعت بين الحلفاء والمحور، والتي اتخذت من أرضنا مسرحا لها، بينما نحن لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

خلقت تلك الحرب موجات من الرعب والفزع بين الاهالي

حدثتني أمي عن تلك المرحلة العصيبة، وقصف الطيران لمدينتها في الحرب العالمية الثانية وسقوط القنابل على بعض البيوت ، وسقوط القتلى والجرحى من الأهالي، تلك المدينة الصامدة المجاهدة، وحدثتني عن تساقط القنابل فوق رؤوسهم، وهم يهرعون مع أهلهم على الابل، أطفالا صغارا رجالا ونساء يبحثون عن مكان يختبئون فيه في الملاجئ والكهوف والمغارات في اعلى الاودية وتحت الأرض وعلى شواطئ البحار كانت حربا طاحنة شرسة.

وبعد أن سكتت مدافع الحرب العالمية الثانية، واختفت الطائرات الحربية المغيرة حتى عدنا من جديد الي مدننا وقرانا، كان يصعب علي تخيل ذلك، حتى شاهدت فيلم عمر المختار الذي ساعد خيالي اليافع..

ولعل كل ذلك ذكرني، بما كانت أمي تجتهد في تخزين المؤن من بضائع الجمعية الاستهلاكية حينذاك، وهي تقول لي :- في أيام الحرب اشتهينا كل شيء حتى طاسة الشاهي..

كانت تسرد لي الحكايات، عن أناس كانوا يعدون الشاي ويحلونه بالحلوى، لعدم توفر السكر في ذلك الوقت حيث المجاعة والفقر المدقع.

كما حكت لي عن الشاهي الوهمي، بأفواه الغابة وكثيرا

وكذلك المجاعة التي حلت بالمدينة حتى أضطر الاهالي الي طحن الحبوب، والفاصوليا لصناعة الخبز لعدم توفر الدقيق، وكذلك ظهور مرض الحمى التيفويد والذي كان يسميه بعض الأهالي السخانة، لارتفاع درجة الحرارة لدى المريض، وقد اشتدت وطأته وقضى هذا المرض الخبيث على عشرات من المواطنين،وأضافت قائلة :- وأكلنا حتى النبات الشوكي القعمول من المجاعة حتى حل موسم حصاد الزرع.

كنت أشفق عليها من أن تقوم الحرب، وهي على قيد الحياة لأن هول الحرب العالمية الثانية كان يعيش في مخيلة أمي، ويختزن في ذاكرتها، وخاصة عندما كنت انتقد الأوضاع السياسية والاقتصادية أمامها، والمتعارضة مع أحلامي كشابة طموحة، أسعى للعيش في مناخ أفضل وأجمل، مشيدة باستقرار الوطن وأمنه.

ورحلت وهي لا تعلم أن الحرب التي استعدت لها، ربما ستأتي بعدها،فهل تكون مخاوف أمي تلك نبؤة ،غير أنها كانت تقول عن مدينتنا أنها مباركة وعصية عن الحرب، حتى غابت ورحلت أمي.

تاركة عبارتها المفضلة التي كانت دائما تترد على لسانها في أصداء أذني :- ايفكنا الله من الحرب وسنين الكرب.

رحلت هي وتركتنا للحرب الضروس والموت القادم من دول الغرب ، بعد17 فبراير لكنني وعيت بعدها على الحرب، وسنين الشدة والخوف والفزع، وحالة من الفاقة والفقر المدقع، وخاصة بعد اسقاط نظام القذافي، وفتح حدود البلاد على مصراعيها، حيث دخل إليها كل من هب ودب، وكل من يسمون أنفسهم بالمعارضة، وتنظيم القاعدة، والإخوان المسلمين، والمخابرات الأجنبية، تحت ستار الاعلام والمجتمع المدني، ومساعدة الثورة في ليبيا، وبرزت أطماع قطر والإخوان في ليبيا سريعا، ودخلت تحت ستار تدريب الشباب على السلاح،وتحت مسمى جمعيات إزالة الالغام، وكان الارهاب والاطاحة بنظام العقيد معمر القذافي واغتياله، والاعلان الرسمي لانتهاء الحرب في ليبيا في 23 اكتوبر 2011 م لاستلام زمام الأمور في البلاد من قبل المجلس الانتقالي، الذي استمر لمدة سنة، وسط فوضى المليشيات وتغولها، وانتشار السلاح، واغتيال رئيس الاركان عبد الفتاح يونس العبيدي ، واستلم بعد المجلس الانتقالي المؤتمر الوطني العام السلطة في البلاد، ومن خلاله وبرزت سيطرة الاخوان على مفاصل الدولة خاصة في المؤتمر الوطني، وانتشار

السلاح بين المليشيات المسلحة، وبعد سنتين تم تسليم السلطة لمجلس النواب، الذي نجح عبر صناديق الانتخاب وحل محل المؤتمر الوطني، واتخذ من مدينة طبرق مقرا له لأن مدينة بنغازي، لم تكن آمنة، واقامت كتائب ومليشيات مسلحة معسكرات لها في مدينة بنغازي، وبدأت في تصفية واغتيال العديد من ضباط الجيش، والاعلاميين، والصحفيين، ورجال القضاء، وخطباء المساجد في مدينة بنغازي..

عندها انطلقت عملية الكرامة في16 مايو 2014 لمحاربة الارهاب والمليشيات المسلحة، وكانت البداية بمدينة بنغازي، حيث رفض أنصار الشريعة والمجموعات الارهابية تسليم سلاحهم، واعتدوا على معسكر الصاعقة في بوعطني، ودخلوا في معارك حامية مع جيش الكرامة، والذي كانت بداية تأسيسه، بثلاثمائة جندي وضابط تحت قيادة اللواء خليفة حفتر، تحصل فيما بعد على تفويض من مجلس النواب وترقيته قائدا عاما للجيش الليبي برتبة مشير، واتخذ من المرج في البداية مقرا له، ثم من الرجمة، وانضم له الكثير من الجنود والشباب المساند، لجيش الكرامة في محاربة الارهاب، وأنصار الشريعة في بنغازي، وتحولت الحرب الي حرب مدن وأحياء في شوارع بنغازي ، ونزح الكثير من الاهالي الي المدن المجاورة، وانقطعت المياه والكهرباء والغاز، وشحت السيولة في

المصارف، وبعد سنوات من حرب الأحياء والشوارع ،بعد فترة تم تحرير بنغازي من الجماعات الارهابية، واتجهت القوات المسلحة العربية الليبية الي مدينة درنة لتحريرها من القاعدة والدواعش وجماعة بوسليم ، والتي استغرقت هي الاخرى عدة سنوات حتى تم تحريرها بالكامل.. دمرت الحرب البيوت، ونزح الأهالي في البداية لعدة سنوات، ثم عادوا بعد ان انتهت الحرب وتحرير مدينتهم، كما اتجهت القوات المسلحة لتحرير الجنوب، ومحاربة الارهاب ومطاردته،ثم الي العاصمة طرابلس لتحريرها من المليشيات المسلحة، وتطور الأمر الي تدخل الغزو الاجنبي التركي وارسل الضباط والجنود الاتراك والعتاد والسلاح والمرتزقة السوريين لمحاربة الجيش الليبي .

كانت حربا ضروسا، سقط فيها الكثير من الشهداء اختفت فيها كل سبل الراحة، ومتطلبات الحياة من انارة وكهرباء ومياه، وتكدست القمامة في الشوارع، وشحت السيولة في المصارف، كانت تلك نبؤة القذافي قبل ان يسقط ويغتال حذر من كل ذلك، وكذلك كان تخوف أمي الراحلة من الحرب، وكنت أردد بيني وبين نفسي قائلة كلما أتذكر أمي :

ياحوش ما فيك امي بلا ريح داير عجاجه

لا نشكي فيه همي ولا تنقضى فيك حاجه

احمد الله ان أمي لم تعش حتى تشاهد هذه السنوات العجاف، والفظائع الرهيبة لهذه الحرب،

بعد أن وجدت نفسي وحيدة، صريعة للتساؤل من جديد من أنا؟ ومن هي أمي الحقيقية؟ عشرات الأسئلة تطرق رأسي، ولا أجد الإجابة لها، وكان إحساسي باليتم والغربة، يزداد كل يوم ويتضخم،كلما تبادر إلي ذهني سؤال آخر عن مأساتي الغامضة.. أتساءل بيني وبين نفسي كيف قدمت إلي هذه الحياة؟ تجددت مئات الرغبات في داخلي، للبحث عنها، لم لا أعرف أمي التي رمتني دون أن أفطن لها، لم أحتفظ لها بأي ذكرى مستقلة، ذكرى امرأة منحتني الحياة، ثم ذهبت مع الريح، أخذت أسأل عنها، أين هي ؟ ومن تكون ؟ كان معرفتها أمرا صعبا

للغاية انا الباحثة عن حقيقة نسبي وهويتي، ويبقى انه قدري ان اقضي عمري باحثة عن أمي وأبي الحقيقين.

لقد قضيت سنوات عمري أدفع اخطاء لم أرتكبها وأصبحت مهجورة كشارع يغطيه الضباب في ليلة شتوية باردة.

بعد تعييني موظفة في الجامعة بمكتب النشاط الجامعي، بسنوات وتعرفي على ضابط أمن،كانت روحه مرحة وشخصيته جذابة، كان يعمل مسؤولا أمنيا في الجامعة حينذاك،نشأت توثقت بيننا عرى الصداقة،

والروابط المتينة وأصبح صديقا لي، يبدو في العقد الخامس من عمره، محبوب ولديه علاقات واسعة، دائم التردد علي في مكتبي، يشرب الشاي عندي أو القهوة، أطل علي ذات صباح علي، كنا نتجاذب أطراف الحديث، ثم تطرق في حديثه إلي تلك المدينة الجميلة، المفتون بها والتي كان يزورها من حين لآخر، خاصة في موسم الصيف، وعلاقاته المتعددة هناك، وإعجابه بها، وإن كنت أنا لأعرف أين تقع حتى هذه المدينة ؟ وكل ما اعرفه عنها انها في الشرق خارج حدود بلادي وانه لم يسبق لي أن زرتها، فخطر على ذهني، ما اوصتني به خالتي قبل رحيلها :- فتشي عن أمك يا أمل واسمها فلانة الفلاني وهي على قيد الحياة

تساءلت :

- أنت تسافر كثيرا إلي تلك المدينة

- نعم أحبها تلك المدينة ولي فيها الكثير من الأصدقاء.

قلت له :

- أريد منك خدمة.

- أي خدمة يا أمل أنا على استعداد ؟

مددت له ورقة مدون عليها اسم ثنائي وقلت له :- أريد منك أن تعرف لي هذا الاسم، هل هو حقيقة أم خيال ؟ وهل هو على قيد الحياة أم لا ؟ وعنوانه بالكامل..

أخذ مني قصاصة تلك الورقة، المدون عليها الاسم،وطواها في جيبه، ثم قال لي :

- أنا مسافر إلي هناك، خلال هذا الأسبوع وسوف أوافيك بالنتيجة.

سافر صديقي الضابط الي تلك المدينة، وعاد منها بعد بضعة أيام،وعندما سألته اعتذر لي قائلا إنه كان مشغولا هذه المرة، ولم تتح له الفرصة، وفي سفرته الثانية للمرة الثانية ذكرته بالموضوع، ولكن دون جدوى أيضا، و طالت المدة وكأنه لم يجد هو تلك الاسم، أو يبدو أن الأمر صعب عليه، وكلما التقي به اساله عن الموضوع لكن لا إجابة لديه، وكدت أن انسى الموضوع،وتسرب اليأس إلي،وكلما أصادفه أو يطل علي في مكتبي كنت أذكره بالموضوع فكان يقول لي :- لا والله مازال لكنني لم أنس موضوعك، وأصبري علي قليلا.

ومضت الأسابيع، ولم أعد أفاتحه في تلك الموضوع، بل وكدت أن أنساه، منعا للإحراج حتى فاجأني ذات صباح هو باتصال هاتفي من هناك، من تلك المدينة وبعد التحية والسلام قال

- ما هو الاسم الثلاثي الذي تبحثين عنه؟

- عندك في الورقة.

لقد أضعتها الورقة ذكريني به من جديد.

قلت له :- عندي الاسم ثنائي فقط، وذكرته له فقد حفظته،بعد أسبوع اتصل بي قائلا :- فتشت لك عنه في مصلحة النفوس كلها..

- آه نعم وهل وجد ت الاسم ؟

- نعم وجدته الاسم.

في فرح ولهفة، وكأنني غير مصدقة :

- صحيح والله.

أجاب :

- صحيح ولكن بفضل الله ومسئول كبير مصري كان صديقا لي في مصلحة النفوس، استطعت أن أصل له لكن...

قاطعته بحزن :

- لكن ماذا ؟

- الاسم مكرر أكثر من مائة وثمانين مرة، وجدته في العديد من المدن المصرية.

قلت له :- دعك من تلك المحافظات البعيدة، فتش لي عنه في تلك المدينة التي تصيف انت فيها.

وعدني هو في الهاتف أن يفعل ذلك في ختام المكالمة،وبعد أسبوع رد علي قائلا :

- وجدته هناك الاسم في المدينة المجاورة لبلادنا وليس مكررا.

قلت له :

- الحمد لله حاول أن تعرف لي عنوانه.

أحسست يومها بالغبطة والسعادة تغمرني.

- بعد أيام اتصل بي قائلا من هناك :

- تعرفت لك على جارها، بصعوبة بالغة.

- تمام أبعث لي رقم هاتفه.

- نعم سوف أرسله لك..

ومن هناك أرسل لي رقم هاتفه، بعد عدة أيام، اتصلت به في البلد المجاور لنا هناك

قلت له :

- من فضلك أريد الحاجة فلانة الفلانية جارتك.

فسألني :

- من أنت ؟

أجبته :- أنا قريبتها من ليبيا.

قال لي :

- أعطني ربع ساعة حتى أذهب اليها وأحضرها لك، من أقول لها من فضلك ؟

قلت له :

- قل لها واحدة من ليبيا وخلاص

- تمام حاضر.

أقفلت الموبايل وأخذت انتظر المكالمة على أعصابي، حتى مضى الوقت، اتصلت به مرة أخرى، رد علي هومن جديد.

:- ها هي العجوز معك..

ردت هي علي من تلك المدينة المجاورة.

:- آلو..آلو

أحسست أن نبرة الصوت واحدة، وأن صوتها نفس نغمة صوتي سبحان الله أجبت:

- آلو..مرحبا

.تساءلت هي : من أنت ؟

قلت لها :

- واحدة من ليبيا قالت لي.

- مرحبا بك وعرب ليبيا.

- من تعرفين في ليبيا؟

- عندي خواتي وبنات خالاتي هناك.

بادرتها بالسؤال :

- أليس لديك أحد غير خواتك وقريباتك في تلك المدينة؟ الا تعرفين أحدا في المدينة المجاورة لها؟

- نعم كان عندي بنت واسمها أمل لكن في مدينة أخرى

وهنا كانت المفاجأة السارة لي، لم تنكرني هي واعترفت بي، فذهلت وفرحت بهذه الإجابة.

قلت لها بأسى ولوم وعتاب :

- يعني لديك ابنة هناك؟

- لكن المرأة التي وضعتها عندها وهي طفلة هناك سامحها الله،

قالت لي بنتك ماتت،ثم أغلقت الحدود بين ليبيا ومصر في عام1977م .

- كنت أخشى أن تتنكري لي أو تتجاهليني، وتقولي ليس عندي أحد هناك، أو تقفلي النقال في وجهي.

- لا.. لا.

- أنا أمل أنا هي بنتك، وأنا لي فترة طويلة نفتش عنك.

- بنتي أمل ما زلت على قيد الحياة معقولة الحمد لله لك يا رب ؟

كان صوتها فرحا، وأنا كان قلبي يتقطع ألما وحزنا، على مضى من العمر دون معرفة من هي أمي؟، ولكنني أشعر بشيء من السعادة، لأنها كانت تحدثني بصوت كله فرح وغبطة قلت لها :

- لكن كيف هنت عليك أن ترميني طوال تلك الفترة كلها، ولا تسألي عني

- أنا والله سألت عنك في المدينة تلك، لكن السجانة هي التي قالت لي بنتك ماتت، وصدقتها يومها..والحدود اقفلت بين البلدين كيف ما ذكرت لك لكن قلبي كان يحدثني أنك ما زلت على قيد الحياة وإنها تكذب علي تلك السجانة القاسية.

- المهم أنا عرفت انك على قيد الحياة وأسمعت صوتك، وخلينا مرة مرة نتصل ببعض..

- لكن يجب أن تقومي بزيارتي يا ابنتي في مدينتي تعالي عندي، نتمنى رؤيتك أنا انتظرك وأحب أن أراك.

- أنا يا أمي حامل في شهري الأخير ولا يوجد لدي جواز سفر، حتى انني قدمت على الجواز سفر في مدينتي وصورت وبصمت وللأسف لعند توا ما طلع وعمري ما سافرت خارج ليبيا، وأنا مسرورة وسعيدة انني عثرت عليك بعد سنوات طويلة وأنك لم تنكريني أوتتجاهليني..

- لا يا بنتي أنا كيف أنتجاهلك أو ننكر انك ابنتي أنا لم أنجبك بالحرام بل انجبتك بالحلال وعلى سنة الله ورسوله، وأنت ابنتي.

- لكن لماذا رميتني طيلة هذه المدة ؟ ولم تسألي عني.

- لهذا الموضوع حكاية طويلة، عندما نلتقي سوف أحكيها لك

- لكن انت يجب أن تزورينني يا أمي ؟

- بعد أسبوع إن شاء الله أنكون عندك.

كنت انتظر وصولها على أحر من الجمر، وفارغ الصبر، وأعد الأيام حتى أسعد برؤيتها وألتقي بها، صاحبة هذا الاسم المجهول، الذي عاش بين أوراقي وبطاقاتي سنوات، دون أن أعرف عنها شيئا، ولكن هل تأتي أم لا؟ الله اعلم وبعد أسبوع رن هاتفي، حدقت في الرقم يبدو رقما غريبا، كان الوقت عصرا، ردت عليه كانت هي أمي، ابلغتني انها سوف تصل غدا مساء، جهزنا المنزل بالسجاد والإنارة الداخلية ثم الزينة الخارجية على المنزل عقود من الأضواء، حتى أخذ الجيران يتساءلون ويتهامسون ماذا هناك عند بيت عيت علي؟ هل عندهم عرس؟ لكن عرس من؟ والشايب والعجوز ماتا من مدة والأحفاد مازالوا أطفال هذا أكبر من العرس أن ألتقي بأمي التي أنجبتني بعد أربعين سنة أليس هذا عرسا بل وفرحة كبيرة لا تضاهيها غبطة انا المجهولة الهوية والتي كانوا يطلقون عليها ابنة الملجأ أرسلت إليها من يستقبلها ومن معها هناك في محطة الأجرة، ومن يوصلهم الي منزلي، وبعد دقائق كنت استقبلهم في لهفة وشوق قدام الباب ومعي زوجي، كانت أمي برفقتها أخوها، وخالتي وزوجها من طبرق، شارك زوجي في الاستقبال، عانقت أمي عناقا طويلا احتضنتني هي بشوق وحنين، وانحدرت الدموع من عيني، منعتني هي من البكاء ثم احتضنت خالتي وأدخلتهما دار الجلوس بينما دخل الرجال

مع زوجي المربوعة وانا في غاية السعادة والغبطة، سررت بها كثيرا ، ليلة وصولها كانت ليلة من أسعد الليالي في حياتي، وكنت أسعد مخلوقة غير مصدقة كل هذا الذي حدث، هذا كان حلما كبيرا بالنسبة لي وأمنية غالية حلم الباحثة عن الحقيقة والهوية، شعرت بالغبطة والبهجة، لأنني عثرت على أمي الحقيقية، وكنت اتمنى بقاء امي التي ربتني على قيد الحياة حتى تشاهد وتشارك هذه اللحظة الرائعة ولقاء امي الحقيقية التي أسعدتني بزيارتها لي في بيتي، لكن هل تترك الأم ابنتها بعد صرختها المدوية ؟ وخروجها للحياة طيلة هذه السنوات الطويلة ؟..

لأول مرة التقي بها وجها لوجه كانت امرأة سمراء البشرة فيها مسحة من الجمال، ذات أنوثة جذابة، بالرغم من أنها تجاوزت العقد الخامس من عمرها، إلا أن لها شخصية قوية جذابة، سرعان ما نهض زوجي وجاء بعد قليل بخروف، وقام بذبحه وسلخه جارنا، وتقطيعه جهزنا لهم وليمة عشاء دسمة، من الأرز واللحم الوطني والعصائر والفاكهة، بحضور بعض الجيران، أما خالي وخالتي فقد غادرونا بعد العشاء وشرب الشاي، عائدين إلي مدينتهم المجاورة لنا في الشرق، اما خال أمي فقد ذهب معهم للمبيت عندهم، حتى الصباح،ومن ثم يغادرهم إلي مدينته، في البلد المجاور شرقا.

وفي تلك الليلة الجميلة، بعد أن استأذن الجيران في الانصراف، وعادوا إلي بيوتهم، وأصبحنا وحدنا أخذت أجهز لهم الشاي الأحمر بالمكسرات، بادرت أمي متسائلة :- أنا الآن في شوق أود منك ان تحكي لي ومعرفة شيء واحد في هذه الليلة السعيدة وقد عفا الله عما سلف.

تساءلت :- ما هو يا ابنتي؟

- وهو أبي هل كنت تعرفينه من قبل ؟ أم تزوجتي منه هكذا ؟

وردت علي بغضب قائلة :- عيب عليك يا ابنتي هذا السؤال، أتظنين انني أنجبتك بالحرام ؟ اسمعي هذه حكايتي من الأول من البداية، واستندت بظهرها على الوسادة : وأخذت تحكي لي ، أنا منذ كنت طفلة صغيرة عشت يتيمة توفيا كل من أبي وأمي، بعد انجابهما لي، وتركاني وأختين شقيقتين ربتهما عمتي، أما أنا فقد أخذتني خالتي وعشت معها في بيتها ، كأبنة صغيرة لها، بعد أن كبرت كانت تصحبني معها لأي مكان تحل فيه، أو تذهب اليه والحياة كانت بسيطة حينذاك، في موسم الحصاد في الصيف كنا نذهب نحصد الزرع في الغيطان مع الحصادة، وفي الخريف بعد أن كبرت وأصبحت شابة ونتيجة الفقر والحاجة كنا نمشي أنا وخالتي، ومعنا نسوة وعجائز من قريتنا، في الصباح نركب السيارات التي تقلنا للحدود المجاورة ، ونترجل منها عند

أول بوابة للجمرك المصري، ندخل بتصاريحنا المؤقتة، نسير على أقدامنا حتى الجمرك الليبي، وبعدها يسمح لنا بدخول تلك المنطقة الحدودية للتسوق، ومن خلال التردد علي تلك المنطقة، تعرفت أنا علي شاب شرطي من حرس الحدود الليبي، في البلدة المجاورة، كان في حوالي الثانية وعشرين من عمره، طويل القامة وسيم، كان دائما ينتظرنا أنا وخالتي، ويهتم بنا ويرحب بنا، ونحن ندخل إلي هناك، بل ويحملنا في سيارته حتى المنطقة المجاورة، ندخل الي المحلات التجارية،ويبقى معنا من محل لآخر، حتى نتسوق ونشتري التموين والبطاطين والقماش، ويرجع بنا انا وخالتي في سيارته حتى الجمرك المصري، ويودعنا هناك على أمل اللقاء به في الغد،وبعد الظهيرة نقفل عائدين، وندخل بما نحمل في تلك السيارات حتى الهضبة، ومع صباح اليوم التالي كنا كالعادة كل أثنين وثلاثة معا،نخرج من الهضبة في البلدة المجاورة حتى الجمرك المصري في السيارات ثم ندخل الجمرك الليبي على الاقدام نشاهد ذلك الشاب ينتظرنا كالعادة، يرافقني أنا وخالتي حتى نتسوق ويرجع بنا ويتحدث معي، حتى نصل البوابة، ونودعه وأصبح أمره يلتفت النظر ويشد الانتباه وعند آخر بوابة، نجد سيارات النصف نقل في انتظارنا، سرعان ما نقفز في صناديقها، ومعنا ما جئنا به من هناك.

وبعد ربع ساعة نجد أنفسنا في موقف قريتنا التي انطلقنا منها، نبيع ما معنا من تموين وبطاطين وقماش، وكان ربحنا فيها بضعة جنيهات في كل نوع من البضاعة نقبض نعود أدراجنا إلي بيوتنا..وهكذا في اليوم الثاني أو الثالث نفعل نفس الشيء، كنا نعيش من خلال تبادل السلع والبضائع بين المنطقتين المتجاورتين، ونقتات من ذلك الباب المفتوح، كنت أنا وخالتي نلتقيه دائما، يقدم لنا الخدمات،ويسهل لنا إجراءات الدخول، بل ويحملنا في سيارته ويبدو إعجابه بي ويتغزل في، وينصب اهتمامه علي كثيرا، حتى إنه أحبني وأحببته، ثم بعد أيام تقدم وطلب يدي من خالتي، في منزل صديق له وهي وافقت عليه، وأحضر شقيقه معه، والمأذون وصديقه، الذي احضر العصائر والمرطبات والمشروب، وقرأ الفاتحة المأذون،وكتب عقد زواجنا المأذون ووقع شقيقه وصديقه على العقد الرسمي على سنة الله ورسوله، في المدينة المجاورة،و هتف لنا المأذون :

- ألف مبروك.. ألف مبروك

التفت صديقه الينا مبروك مبروك

اعطاني المأذون صورة من العقد مددتها لخالتي لتحفظها عندها والفرح وحضور الأهل

بادرني الزوج :

- كل شيء في وقته يا عزيزتي لم أفهم شيئا يومها ولذت بالصمت

ثم قبل المغيب عدنا الي قريتنا واخذت مع خالتي نجهز للعرس بالمبلغ الذي منحه لنا،لكننا فوجئنا به أن أقام عرسا صغيرا متواضعا، لم يحضره أهله بل مجموعة من أصدقائه في الشرطة والجيش، يوم العرس أقبل أصدقاؤه بسياراتهم الي منزل خالتي،وحملوني الي الغرب، حيث استقربي زوجي، في منزل صغير بقرية صغيرة، قريبة من الحدود، لا تبعد كثيرا عن تلك المنطقة الحدودية، بعد أيام أحسست بالحزن والغضب ، وصارحته متسائلة: - لماذا لم تقم لي عرسا مثل أي فتاة تقبل على الزواج؟ ولم تعرفني على أهلك ؟

ساعتها لم يجب على سؤالي ودلف خارجا يلفه الغموض والتوتر غاضبا،الي حيث الخلاء الفسيح ثم عاد مع المساء، وقد هدأت أعصابه قليلا ،وبعد تناول العشاء معي وشرب الشاي انتقلنا الي غرفة نومنا،وتمددنا على السرير بدأ بمداعبتي بيده لكنني أزحتها بعيدا عني طالبة الاجابة على سؤالي السابق فهتف بي :- أنا أصارحك لكن تعديني الا تغضبي مني ؟

- أنا لا أغضب منك لكن المهم الوضوح والصراحة

- أنا لم أقم لك حفلا بزفافنا لعلك تتساءلين لماذا؟

قلت له بلهفة :

- لماذا ؟

- لأنني في الحقيقة ومالم تعلميه عني، هو إنني كنت متزوجا قبلك بامرأة أخرى ولي منها ابناء وأخفيت عنك وعن زوجتي الأولى كل ذلك...

غضبت ليلتها وحزنت كثيرا، ولكن ماذا أفعل ما باليد حيلة؟ وقد وقعت الفأس في الرأس وأضاف في مجاملة ورياء

- لكنك أنت كل شيء في حياتي وانت عمري وانت الأجمل وانت الأفضل تلك المرأة زوجها لي أبي رغما عني..

مضت الأيام والأسابيع، والسعادة تغمرنا، وتظلل على بيتنا الصغير،بالرغم من أنني لست الأولى في حياته، فهو لديه زوجة أخرى وأطفال.

أشعر احيانا بتأنيب الضمير ولماذا قبلت به؟

سمعت عصر ذات يوم طرقا عنيفا على الباب، خرجت مذهولة فتحت الباب في دهشة، وجدته شقيق زوجي، الذي بادرني في ارتباك يبدو عليه، وفي عجلة من أمره :

- هيا خذي كل ملابسك، وحاجياتك، لأحملك الي أهلك في البلد المجاور.

في دهشة وذهول وفزع قلت له :

- لماذا ماذا هناك ؟

- هيا بسرعة سوف تعرفين فيما بعد..

أخذت أخرج ملابسي من الدولاب بسرعة، في ذهول وتساؤل ترى ماذا حدث ؟، وأضع كل حاجياتي في تلك الحقيبة الكبيرة، وبعد دقائق دفنت نفسي إلي جواره في السيارة، وأنا أتساءل ماذا حدث؟ لكنه لم يجب ظل صامتا.. كان يبدو مكفهر الوجه حزينا، وداس على البنزين، ومقود السيارة بين يديه وانطلق بي نحو الشرق، وما أن وصلنا منزل خالتي بعد ربع ساعة حتى توقف، ودعاني للترجل، ورمى بالحقيبة أمام الباب، وأجابني قائلا :

- عليك أن تضبطي نفسك وتسيطري على أعصابك وتصبري على قضاء الله وقدره، زوجك وشقيقي وقع له حادث اليوم في سيارته،وهو

في طريق عودته من العمل، ولقي مصرعه على الفور، وعليك بالصبر والدعاء له بالرحمة والمغفرة..

ولطمت خدي بيدي في حرقة ولوعة،وأغر ورقت عيناه بالدموع وما لبث أن قفل راجعا بسيارته، واختفى بينما اطلقت انا صرخة قوية، وطرقت الباب بعنف، خرجت على أثرها خالتي مذعورة مندهشة، وهي تتساءل :

- ماذا هناك يا ابنتي ماذا أصابك ؟

قلت لها وهي تحتضنني :

- زوجي زوجي... ياخالتي

- ماذا ألم به ؟

- زوجي مات في حادث، وهو في سيارته في طريق عودته..حزنت عليه كثيرا وربطت حدادا عليه، وقعدت مع خالتي، بضعة أشهر، غير انه بعد أيام مرضت فحملتني خالتي الي طبيب المنطقة الذي سرعان ما فحصني وكشف علي ثم بعدها بادرني في ابتسامة :- الف مبروك انت حامل.

أخذت بطني تكبر رويدا رويدا، وبعد أن أكملت مدة الرباط وفترة الحداد قالت لي خالتي:

- سافري إلي أهل زوجك وفتشي عنهم.

غير انني ما أن دخلت الحدود من المدينة المجاورة، حتى تم القبض علي مع المتسللين يومها، وتم ايداعي في سجن النساء، بمدينة ليست قريبة من الحدود، لأنه لم تكن معي يومها اجراءات رسمية، أو جواز سفر.. ولأن العلاقة كانت مقطوعة بين البلدين، بعد اتفاقية السادات مع اسرائيل والحرب الاعلامية مستمرة بين الدولتين، لم تأخذهم بي رأفة أوشفقة ومكثت في سجن النساء عدة أشهر وأخذت بطني تكبر رويدا رويدا، حتى جاءني المخاض، وأنجبتك داخل السجن، على يد السجانة التي جاءتني بقابلة معروفة في المدينة ولدتني، ووسط فرحة المسجونات معي، وكان السجن في حالة يرثى لها،من عدم العناية والاهتمام، فسميتك أمل وسلمتك للسجانة، بعد ولادتك بأيام وقلت لها يومها :- خذي هذه الطفلة هي أمانة عندك، أنا هنا غير قادرة على تربيتها في هذا السجن القذر ، وهي من أب ليبي تزوجني زواجا شرعيا، وتوفي والدها أثر حادث أليم، وهو صغير في السن لم يتعدى الثانية والعشرين من عمره، وبعد أن أقضي مدة السجن سوف أستلمها منك، ولك عند الله الأجر والثواب، فرحت بك يومها تلك السجانة وظلت تقبلك كثيرا، وأخذتك في اللفة واحتضنتك، وهي في غاية الغبطة والانشراح، وكأنها عثرت على

كنز ثمين، وكنت أظن أنها قد عادت بك إلي بيتها، وبعد أن قضيت مدة الحبس، وتم الإفراج عني، بحثت عن السجانة، فقالوا لي إنها في أجازه لمدة شهر، وقامت الشرطة الليبية بترحيلي وتسفيري على الفور لبلادي،دون ان تأبه بما طلبته منهم أن يمهلوني أياما، حتى أخذ طفلتي وأعود بها، بعد قضاء مدة الحبس حتى الحدود وسلمتني للسلطات المصرية.. عدت الي أهلي بخفي حنين،في حزن وأسى، بعد فقدك مني وضياعك، ولكنني لم أقنط من رحمة الله، واستخرجت جواز سفر جديد، بعد سنة، ودخلت الحدود الليبية من جديد بإجراءات رسمية هذه المرة ، ووصلت تلك المدينة التي كانت تسكن فيها السجانة للبحث عنك، وسألت عنها في الحي الذي تسكنه حتى وصلت الي بيتها في البداية خرج لي صبي وقال لي لحظة ثم دخل الي المنزل وعاد الي بعد برهة قائلا :- انها غير موجودة.

وعدت إليها في اليوم التالي، خرجت إلي هذه المرأة السجانة، التي تقدمت منها أريد معانقتها، فكانت هناك علاقة طيبة بيني وبينها في السجن، لكنها فاجأتني حينما ارتدت خطوة للخلف، ومدت يدها لي، وعلى مسافة ليتوقف الامر عند المصافحة، وكأنها لا تعرفني، ولم ترحب

بي،وضاقت بها الدنيا، وأصفر وجهها لحضوري، وكست ملامحها ارتباك واضح، عندما سألتها عنك، وأجابتني بكل بساطة وبرود:

– طفلتك ماتت، بعد إطلاق سراحك الله يرحمها ويغفر لها.

وأوصدت الباب في وجهي، ولم ترحب بي، أوتعزمني حتى مجاملة على الغداء، فكأنها كانت تريد أن تتخلص مني، غريب ما حدث معي من تلك السجانة، لقد شعرت بعمق الجرح الذي تركه تجاهلها لي وتهربها مني..

قفلت راجعة في كآبة وقلق،غير مصدقة ما قالته تلك السجانة، فحزنت يومها عليك كثيرا، وأنت ابنتي من صلبي، من والدك فلان الفلاني، والذي انتقل إلي رحمة الله اثر حادث اليم، وكان لا يعلم بزواجي منه إلا شقيقه وصاحبه فقط،وفي تلك السنوات في اواخر السبعينيات،اغلقت الحدود نهائيا بين ليبيا ومصر وزوجني عمي من ابنه في البلدة، وأنجبت منه ابناء وبنات.

نتيجة خلاف نشب وصراع بين الرئيسين السادات والقذافي، أثر زيارة السادات الي القدس وتوقيعه معاهدة كامب ديفيد هناك، واستعادت كل دولة سفيرها و تأزمت الأمور، وتدهورت العلاقات على الحدود، واختطف الجيش المصري بضعة ضباط من حرس الحدود من

الشرطة، وتبودل اطلاق النار بين الجانبين، بل ودخل الجيش المصري المنطقة الحدودية، ثم ما لبث ان خرج منها اثر تدخل الجزائر، واستمر اغلاق الحدود بين البلدين، ومنع السفر والزيارات ، وانقطعت العلاقات لأكثر من عشر سنوات، وأضافت أمي تقول : وأوصد الباب الغربي الذي كنا نقتات منه في وجوهنا، وتمت مواربته وزرعت الالغام على الحدود بين البلدين، حتى بعد سنوات تم اغتيال الرئيس السادات على يد الجماعات الاسلامية المتطرفة،

وفي تلك الفترة كنا نحن البدو البؤساء ابناء المدينة المجاورة، قد دفعنا الثمن باهظا، حتى الذي كان يتسلل عبر الحدود لا ينجو من لغم زرعه الطرفين، أو القبض عليه وخلال تلك السنوات العجاف، لجأنا نحن البدو الي المدن المصرية المجاورة لنا في الشرق، للعمل والارتزاق هناك.

- لقد أحببت أباك يا ابنتي واحبني وجمعنا عش الزوجية ولكنني كنت سيئة الحظ فلم يعش معي طويلا..

وجهت أمي نصيحتها الي قائلة :- ويبقى في الختام من غير ضروري أن تبحثي عن أسرة والدك، فهم احياء ولديك اخوات واخوة منه من زوجته التي كان مقترنا بها قبلي، ولكن قد لا يهتمون بك، أوقد

يتجاهلونك، ويكفي أنك اعتمدت على نفسك، وتعلمتي وكبرتي وعندك اليوم زوج وابناء، وتعملين في الجامعة موظفة ، وأنت عندك خالات في المدينة التي تقع شرق مدينتك، أوصيك بزيارتهم والتعرف عليهم.

ومنحتني صورة والدي هدية منها، أيام كان شابا بشاربه الهلالي، وشعره الفاحم ووجهه المستطيل احتفظت بها عندي..

وبعد أيام سافرت أمي، وعادت إلي بناتها وأبنائها هناك في المدينة المجاورة، وقد رجتني إلا أبحث عن أسرة والدي، وإلا أهتم بفتح هذا الملف مستقبلا،وبعد سفرها الي مدينتها هناك أقصى الحدود كتبت هذه الخاطرة:

(قذفتني أمي لهذا الوجود كما لغم، ولاذت هي بالاختفاء، لم تدرك ان قلبي ظل وراءها يحترق كسنبلة، وأخيرا التقينا بعد أربعين سنة لكنه لقاء بلا دموع أو بكاء، ماذا أفعل وأيامي طويلة هنا ؟ والغربة تأكل أطراف قلبي، في مدينتي هذه مسقط رأسي، ومرتع طفولتي وصباي،وزهرة عمري، أطلق عليها اليوم مدينة النوم، والمرتبات والعمارات المتهالكة، والعربات الكثيرة، والأضرحة المهدمة، والميناء المهجور، والساحات العبقة برائحة الدم،الصبح فيها يستقبل، ويقبل وجه الياسمين الندي، ويتثاءب في وجه زهرها، وورودها الخجلى،

ويتأبط هدير أمواجها، وصخب نوارسها الحزينة، كان يبهجني فيها لون القرعا، والحمص المنقوع لعشاق المبوخ، بسوق خضارها، كم يذكرني ذلك ياأبي حين أتعلق بسترته، وأذهب معه للسوق في تلك الأيام الخوالي، مدينتي التي اليوم يضربها الكساد والفراغ، ومكتبة وحيدة فيها تقاوم الريح، وليس في مدينتي حديقة واحدة لأطفالها، مدينة الكساد وأكداس القمامة، كانت في ذلك الزمن تستقبلك بنسائمها العذبة، وتغريك بدخولها، يثيرك جمالها كإمراه لعوب، تخفي الكثير..مهجورة كشارع يغطيه الضباب في ليلة شتوية باردة، حيث الغربة والنهايات الشاردة،كنت أنا التي لم تعد لها علاقة بأي شيء في هذه المدينة، أوفي هذا العالم،فلا أزور ولا أزار،

ولم أعد حتى أهتم كثيرا بعملي في الذهاب إليه، ولا أعلم حتى عدد جهات الاتصال التي يحتويها هاتفي،بل نسيت حتى محتويات دولاب ملابسي، وألوان فساتيني ولم أعد أحزن لشيء من حياتي الماضية، بل لا أذكر أنني عشت حياة بالأساس، لم تعد تثيرني مواقف أو تهزني أحداث، لكنني لست بائسة أشعر بأنني بلا علاقة بأي شيء، ولكن طاقتي على الحياة تهدر بدماء حارة، ولازالت عيني المتعبة، ترنو إلي البعيد) إلي خالتي، التي أجرمت في حقي، عندما، أبلغت أمي الحقيقية، أنني قد مت،

خوفا على أن تغضب أختها، التي كانت قد تعلقت بي، وأصبحت أنا طفلتها ،ولم تعد تستطيع أن تأخذني من بين أحضانها، فهي كانت تخشى على حياة أمي التي ربتني، لا تدري ماذا يحث لأمي؟، لم تبلغ أمي الحقيقية بالحقيقة، كذبت عليها يوم أن زارتها تطلب منها تسليمي لها فأدعت انني قد مت.

اليوم ونحن في زمن الانترنت ننام ونصحو عليه، وشبكات التواصل وما تحمله من أخبار وفواجع وشتائم، حتى اصبح الانترنت وكأنه هو الذي يملكنا، نشرت قصتي هذه على صفحتي في الفيسبوك ،الكثير من الاصدقاء والصديقات أبدوا أعجابهم، وطلبوا مني نشرها في كتاب،

واليوم من داخل حطام مدينتي والارهاب، الذي دمرها واغتيال خيرة مثقفيها ومحاميها، وضباط جيشها ،أعيش ولي اصدقاء وصديقات وأقارب ولي فيها ابناء وبنات..

وقفت أمام المرآة طويلا ذات يوم قائلة، ومن خلل الأرض أشم رائحة تلك الأرض، التي لم أولد ولم أعش فيها، ولكنها أنبتت أبي الذي لم التق به، حيث قذفني بذرة وترك العالم كآخر قطعة من نبضه قبل الرحيل كأخر وردة تجود به الفصول

ماذا سيكون مصيري ؟ هل ترحب بي مدينة أبي تلك، أم تلفظني للشارع بلا رحمة ؟ وأعود بائسة لتلك المدينة التي حضنتني، وأطعمتني الجفاء والشجون والغربة..

وتمضي سنواتي التي تجاوزت فيها سن الأربعين، ها انذا أجلس اليوم، لأستعيد فيها ذكرياتي، وذلك الأمس المفقود، حائرة أنا هل أعود الي مدينة أبي، الذي لم أره أم أقضي بقية سنواتي في المدينة التي ولدت بها...

الكاتب في سطور

القاص والصحفي المهتم بالمأثور الشعبي الليبي/ حسين نصيب المالكي – من مواليد سنة 1953م

صدرت له العديد من المجموعات القصصية وهي:

1- مقبولة مجموعة قصص قصيرة صدرت سنة 1979م شركة النشر والتوزيع والاعلان طرابلس

2- وتجسد الحلم مجموعة قصص قصيرة صدرت سنة 1984م المنشأة الشعبية العامة للنشر والتوزيع طرابلس

3- الرجل والنورس مجموعة قصصية صدرت سنة 2010م مجلس الثقافة العام

4- الطيار البرونزي مجموعة قصصية صدرت 2018م الدار العالمية للنشر بالإسكندرية

5- الحطية مجموعة قصصية صدرت سنة 2019م – دار البيان للنشر بنغازي

6- من شتات الذاكرة سيرة ذاتية صدرت سنة 2018م – المكتبة العربية للنشر والتوزيع – القاهرة

7- المجموعة القصصية الكاملة سنة 2019م المكتبة العربية للنشر- القاهرة

ومن الكتب النقدية:

1- قراءات في القصة الليبية القصيرة 2015م مجلة المؤتمر

2- من كتاب القصة القصيرة في طبرق – كتابات ونصوص سنة 2010م الدار مركز نهر النيل بمصر

3- وقفات أدبية – كتاب من بلادي صدر سنة 2018م – الدار العالمية للنشر بالإسكندرية

كما صدرت له العديد من كتب الشعر الشعبي الليبي لكل من شاعر معتقل العقيله سنة 2018م دار الرواد

– والشاعر هاشم بو الخطابية –سنة 2..6م

والشاعر المناضل عبد الجليل سيف النصر سنة 2018م الدار العالمية للنشر بالإسكندرية وغيرهم.

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.